فؤاد قنديل
أهل السوق
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب

فؤاد قنديل

أهل السوق

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

(1)

موكب الوداع مهيب ومثير للدهشة. محتشد بعشرات الآلاف من المعزين ومنقوش بالأردية السوداء والعيون الحمراء المبللة بالدموع بدرجات متفاوتة.. ملاك الموت كان نبيلا على غير العادة واختار أن يقبض روحه في يوم غير يومي الجمعة والأحد حتى تتاح الفرصة لأحبابه وزملائه في السوق لتوديعه في مسيرة طويلة تضم الباكين لمسافة كيلومتر ونصف الكيلو على الأقل من بيته إلى المسجد الكبير.. تبادل حمل تابوته أكثر من مائة حبيب وقريب ومنتفع وباحث عن الثواب.. في المقدمة كثيفة الحزن، أبناؤه الثلاثة والعشرون وأحفاده الخمسون، غير واحد وثلاثين من البنات والحفيدات، كن بين النساء الباكيات على رحيل عميد العائلة، وقد ارتدين بالكامل من قمة الرءوس حتى الكعوب كل ما هو أسود فاحم قادر على تفجير الحزن ودفق الدموع.

زعق رجل ضخم تراه العيون من بُعد بين المحتشدين السائرين مطأطأي الرءوس:

- وحِّدوه. لا دايم ولا باقي غير الله.

رد عليه الجميع في صوت هادر صعد بسرعة إلى السماء ليبلغ الرسالة:

- لا إله إلا الله.

مضى الموكب المكتئب، تشمل أغلب المشاركين فيه حالة من الذهول ليس بسبب صدمة رحيله فكلُ من عليها فان، ولكن بسبب صدمة بقائه حتى قارب المائة

من عمره الغامض.. كان إلى حد كبير مجهول الهوية ومشهور في الآن نفسه.. لا أحد يعرف السر على وجه اليقين، إذا كان هناك يقين..

الرءوس المنكسة والغارقة في الصمت كانت تمور بالأسئلة، والمناسبة لا تعين على أية إجابة، ولا تشجع على فتح أي موضوع، حاول الكل قمع ما يدهشه، ولم ينشغل بالموت كما هو الهدف من السير خلف الجثمان.. جاء الجميع لتوديع الخواجة زميلهم في السوق، لكنهم سمعوا أن الميت هو محمد جرجس، وأكد البعض أنه محمود عبدالراضي، وقال آخرون بل ناصر العبد، وهمس فريق منهم بأنه شفيق ضرغام، وقيل عماشة النادي وسيد كمونة وشوقي برهام، وتحفظ البعض قائلا بثقة مشكوك فيها:

- يا جماعة.. الراحل صاحب الخيرات هو كامل رشدان.

قال غيره: بل سالم الكيلاني.

تساءل بعض كبار السن:

- هل هذا أمر طبيعي؟!

من كثرة الأسماء المتضاربة والمتعددة التي تم تداولها في صفوف الموكب حار الجميع، ولم يدركوا بالضبط من هو الراحل الذي يتمدد في التابوت، حتى اضطر الكثيرون لتسليم أمرهم إلى الله أملا في أن يحتسب حضورهم خيرًا ربما يحظون بالثواب عليه، أيا كان الذي ودَّع الحياة أو ودعته. تعذر على الجميع

تجاهل مشهد السماء التي امتلأت بالحمام والغربان والعصافير والحدادي والصقور ومختلف الطيور، ومنها ما ليس موطنه البلاد وربما قدم من بعيد حريصا على المشاركة في وداع ظاهرة بشرية، استطاعت أن تشغل فكر أعداد هائلة، وأن تكون موضوعًا لهم جميعا يلتفون حوله كل ليلة.

عن هذا الموكب غابت أهم شخصية عرفها كل من شارك في الجنازة ومن لم يشارك.. تطايرت أسئلة وارتطمت بأسئلة أخرى، وصادفت الأسئلة تكهنات لإجابات عشوائية مجهولة، وانطلقت الظنون والأوهام تبحث وتفتش عن الحقائق، التي كثيرًا ما اجتذبتها وبددتها غابة شاسعة من الشائعات والمبالغات، والهدف الأساسي منها التسلي بالحكايات والسِّيَر لمحاولة خلق عالم وهمي كبير موازٍ للعالم الذي خلقه الله.. عالم ربما كان قطنيًا هائشًا أو غزل بناتي منفوشًا، عالمًا إسفنجيًا يقبل أن يستوعب الجديد، وأن يمتص ويكبر.. عالم يتمدد ويشمل الفراغ والليالي الباردة والفقر الشامل.

غابت عن هذا الموكب أهم شخصية هي الأحق بكل كلمة، يمكن أن تتضمنها السطور التالية.. إنه محمد جرجس الذي مر اسمه بالعديد من المراحل.. تغير معها حسب الظروف والملابسات.

يؤكد الكثيرون أنه كان في الأصل محمد موسى الشهايبي ثم محمد جرجس لسنوات كثيرة، ثم تعاقبت الأسماء وتنقلت وتبدلت، والحكاية بأكملها بناها القدر

والإرادة البشرية، التي يمكن أن تلعب دورًا مهمًا أحيانًا على حادثة جرت في إحدى قرى سوهاج منذ نحو ثمانين عامًا، وحول منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، وفي أعقاب معاهدة النحاس والإنجليز الشهيرة بمعاهدة 36، وبعد تولي فاروق عرش مصر ملكًا عقب رحيل والده فؤاد، وصعود نجم هتلر في ألمانيا، وهكذا لا تأتي الأحداث المدوية فرادى بل في الأغلب تأتي مجتمعة حتى تعجز الناس عن محاولة السيطرة عليها أو مواجهتها.

قَتل واحد من عائلة الشهايبة أحد رجال عائلة الجهاينة، وعلى الفور اجتمع رجالُ الجهاينة جميعًا، ودون دعوة لبحث الأمر الصادم دون حزن أو بكاء، لكن بحسم لتحديد المطلوب قتله من الشهايبة، وتقرر أن يكون عبد الإله جرجس الشهايبي، شقيق محمد، الذي تحمله الأعناق والرءوس المتسائلة الآن، لتضع نهاية لقصة طويلة، وربما لا تضع هذه النهاية، لأن الموت كما هو معروف نهاية الجسد، وليس نهاية الكلام والحكايات المتجددة النابعة من الشخص ذاته.

في يوم العيد، استعد حمدان رجل الجهاينة بسلاحه مدعومًا بدعوات أهله رجالًا ونساء أن يوفقه الله لاختطاف روح عبدالإله لبدء فيضان الحزن الذي يليق بمن رحل، فالأسرة يجب أن تحزن عليه، لكن الوقت الآن وقت عمل، وتتمنى ألا تتعطل كثيرًا إجابة السؤال المعلق بالروح والعمر والكرامة.. الحياة ذاتها تبقى معلقة

بلا أي طعم ولا لذة إلا إذا هدأ القلب بالثأر، وبدأ الحزن الذي هو فرح، حيث تختلط الدموع بالطبول وتعرف العيون مكاحل النوم، وبالحزن يرقص القلب، وتستحق الرءوس أن ترتفع نحو الشمس.

وصلت إخبارية من فرق الاستطلاع أن عبدالإله سيركب المعدية بعد العصر، ويعبر النيل إلى الضفة الأخرى لزيارة أهل خطيبته، وسوف يحرص على التخفي والصمت وتبديل الجلباب والطاقية والكوفية، التي اعتاد أن يطوق بها عنقه أغلب شهور السنة الأخيرة.

قبل أن تغادر المعدية الضفة الشرقية للنيل بزمان، كان حمدان الجهيني قد اعتلى شجرة تركب الضفة الأخرى.. كَمَنَ بين دغلٍ من الأغصان، وبعينيْ صقر مسح أرض الضفة الشرقية وأوشك أن يحصي رمالها ونملها.

تحركت المعدية المحملة بعدد كبير من الركاب بنعومة ويسر، مع أنها بدت مثقلة بحملها حتى لتلمس أيدي الأولاد مياه النيل، وتنثرها للرياح المنتشية بالتقاط رذاذها.. الكل يضحك ويفرح ويتحدث، بينما حمدان في مكمنه الغربي متأهب لا تغفل نظراته عن هدفه جزءا من الثانية، لكن قلبه كان يخفق مثل ماكينة طحين، وكانت روحه مستثارة جدًا بسبب الزحام والاختلاط والتكدس الذي قد يعوق المهمة، ومع ذلك أدرك أن الظروف لن تكون مهيأة بهذه الصورة المثالية مرة أخرى، وعليه أن ينجز مهمته المصيرية اليوم حتى

لو اضطر لإطلاق رصاصه وسط الناس وعلى الملأ.. تاريخ عائلته كله يتحدد اليوم، بل مع لحظة اندفاع الرصاصة وتمزيقها قلب الموعود بها والمخلوقة من أجله.

خاضت المعدية في الماء ومعها قلبه وعيونه.. يمسح كفه في ملابسه كل دقيقة من العرق السيَّال ويرطب حلقه الجاف.. يدهش لبطء المعدية التي تبدو كأنها تخوض في وحل. بدأ يتوتر ويود لو كان قريبا ليدفعها بكل ما يملك من عزم.. لما بلغت منتصف النهر تقريبًا لاحظ اهتزازها وميلها المتصل على كل جانب بالتبادل تصورها رجلًا تجرع برميلين من البوظة. لم يستوعب ما يجري. ثمة من يحاول هزها لتعطيلها، ثم توقف الاهتزاز والتمايل لحظات وشرعت تهبط في هدوء وسلاسة إلى أعماق النهر العجوز.. الركاب يتقافزون ويصرخون فزعًا، ويهتفون بالرب أن يتدخل بلطفه ورحمته دون أن تتوقف حركتهم المحمومة بحثا عن منقذ. عن مراكب صغيرة أو ألواح من الخشب أو حتى مواعين وأوعية. عما يتعلقون به.

النسوة تولول. الركاب يتخبطون بعضهم في بعض. الموت قادم بإصرار وله هدف واحد، والركاب تتصادم محاولاتهم لتفاديه.. الكارثة تحاصر المشهد. كل معالم الصورة الشاسعة ترتجف في عيون حمدان.. ماذا يرى؟ النهر ينشق ويبتلع الناس، البندقية ترتعش، وعيون صاحبها تكاد تخرج من محاجرها العظمية دهشة

وغيظًا.. المودعون على الضفة يولولون ويقفزون إلى أعلى، وبعضهم يقفز في الأمتار الأولى من النهر، والبعض مجيد السباحة مضى بقوة نحو المعدية أو إلى حيث كانت. على البر تغترف الأكف التراب وتهيله على الرءوس.. أخذ حمدان الذي غرق في بحيرة غضبه المشتعلة يضرب الأغصان ويمزق الأوراق ويخبط رأسه في البندقية كأن عائلته قد غرقت مع المعدية المجنونة. لا يفهم غير أن الطبيعة أصابها الجنون في يوم العيد.. ما هذا الحظ التعس؟!

اشتعل الصراخ في البَرِيْن، وتحول العيد الكبير إلى مأتم كبير، ولم تحزن الشهايبة فقط، ولكن الجهاينة أصحاب الثأر حزنوا أيضا.. أهل عبدالإله أحزنهم رحيل ولدهم الغالي، والجهاينة أتعسهم إفلاته من الموت الذي كانوا يعدونه وينتظرون من ورائه العزة والشرف.. كانوا على ثقة كاملة أن الظروف مواتية جدًا والنهاية التي يتمنونها قادمة لا محالة.. ساءهم جدًا أن القدر يلعب ضدهم وقد تسبب في إرجاء فرحة الحزن.

في الليلة ذاتها، اجتمع الجهاينة لاختيار بدل الفاقد الشهايبي الذي يليق أن يكون هدف ثأرهم.. انتهت الحوارات المحتقنة بسرعة فقد أعلن الجميع أن المرشح للموت هو محمد جرجس، وهو أحق من غيره بالموت فهو أفضل من يخلف عبدالإله من الشهايبة وأصغرهم، وأكثر من يشعل النار في قلوب أهله كمدًا وحسرة. أما طالب الثأر فقد اتفق شيوخ قبيلته على أن يظل كما هو

حمدان، بوصفه أفضل من يقوم بالمهمة رغم صدمته بالموت الجماعي. عَلم الشهايبة عن طريق فرق الاستطلاع أن الخصوم استقروا على محمد فسهر كبار العائلة يعدون العدة.

في الفجر، خرج رجل وامرأة من درب الشهايبة: امرأة منتقبة في ردائها الأسود تمتطي حمارا، ورجل مُلثمٌ بكوفية سائرا على قدميه يمضيان في خفاء وعجلة. خاضا في الحقول ورمال الصحاري لنحو ساعتين، ولمَّا أشرقت الشمس وهي تبحث عن عمل لها في منطقة غائمة وصمت مهيب، كان الشبحان قد وصلا محطة القطار الخالية من جنس البشر. وصل القطار وأغرق الفضاء بدخانه الأسود فركبا معا وتركا الحمار مربوطٌ حبله في حديد النافذة. بعد ساعتين وصل القطار القادم من الاتجاه المعاكس مثقل الحركة دائم الخوار ثم توقف راضيا بقليل من الراحة.. نزل منه بعض الرجال من بينهم من أخذ الحمار وقد أنجز مهمته دون خطأ يُذكر، وزار أقارب له في قرية بمنتصف الطريق ثم عاد إلى أهله قبل الفجر، وكان الأهل بانتظار ذلك الرجل الذي كان من خُدام العائلة، وكان هو الملثم بالكوفية في طريق الذهاب، أما المنتقبة فكانت محمد جرجس الذي أخذ طريقه إلى الجيزة.

جدُّه أيضًا كان اسمه محمد، ولمَّا كان في سن الطفولة أحب زميل العمر الأخضر جرجس، وتصادقا وتلازما في كل شيء، ولم يفترقا يوما، حتى أن والد جرجس عندما

قرر أن يدفع بابنه المدلل والوحيد على أربع بنات إلى طريق الرجولة بالعمل معه في معصرة الزيت، طلب الولد من أبيه أن يعمل معه محمد. وافق الأب متري، ومضت الشهور في صالح محمد الذي أخلص للعمل وأحبه.. يبذل الجهد والوقت ويحرص على مال المقدس متري بعينيه، وعندما كان الشهايبة يطلبون من محمد التوقف عن العمل عند متري ومشاركتهم في زراعة الأرض يرفض متري ويزور العائلة راجيًا السماح لمحمد بالبقاء في المعصرة، فلم يعد يأتمن أحدًا غيره ولا حتى ولده جرجس، كما أن «محمد» يفيد في بقاء جرجس والتزامه، إلى أن فوجئ الأب بالتيفويد يفترس ولده جرجس، ويتمكن منه حتى اختطفه الموت بصورة فاجعة.. اضطر متري إلى أن يزداد تمسكًا بمحمد بوصفه بديلا عن الراحل، وكلما سأله صديق عن ولده جرجس، أشار إلى محمد:

- راح جرجس وبقي أخوه.

وإذا تشكك البعض، فإنه يقول إن محمد بالنسبة له هو جرجس وأعز منه، وهكذا اشتهر الجد بأن اسمه محمد جرجس حتى غدا اسمه الرسمي، ولم تكن أيامها أوراق أو سجلات، وزاد متري بأن كتب في وصيته قبل موته لمحمد جزءًا من التركة.

نام محمد -الحفيد- في قطار الجيزة وحلم بأبيه يحكي له قصة، حكاها له من قبل جده محمد جرجس نقلًا عن الخواجة متري:

- منذ 12 قرنًا تقريبا كان عمرو بن العاص يستعد للسفر في حملة إلى الشام.. وأثناء انتظار الأسطول في ميناء الإسكندرية استعدادا للرحيل تسلل أحد البحارة متخفيًا بالظلام الحالك إلى كنيسة بوكالسيا، وراح يبحث عن أي شيء ثمين يسرقه، إلى أن اصطدمت يداه بتابوت خشبي، فتحه عنوة بخنجر كان في خاصرته، ليجد رأس القديس ماري مُرقس وجسده ملفوفين داخل التابوت، ويبدو أن الرأس كان مفصولا عن الجسد في عصر الشهداء، فأخذ اللفافة التي بها الرأس معتقدا أنها كتلة من الذهب أو الفضة وأسرع عائدا إلى سفينته، حيث أخفاها في مكان لا يبلغه أحد.

أمر ابن العاص بالإبحار، وفردت السفن قلاعها وانطلقت إلا السفينة التي في قاعها رأس القديس ماري مرقس الإنجيلي.. فلم تتحرك رغم محاولات البحارة المستميتة.

فأبلغوا القائد عمرو الذي أمر بتفتيش السفينة.. وأخرج البحارة كل ما في أحشائها حتى عثروا في قاعها على الرأس المغطى باللفائف.. ووجدوا رأس القديس المسروق.. سأل القائد عمن خبأ الرأس، وبعد لحظات طويلة من الصمت اعترف البحار الذي اكتفى ابن العاص بطرده. وبمجرد خروج الرأس المبارك من السفينة.. تحررت وتحركت.

أخذ عمرو رأس القديس ماري مرقس، واحتفظ به في غرفته الخاصة تحت حراسة مشددة ثم سأل

معاونيه عن بابا الأقباط، قالوا: الأنبا بنيامين البطريرك الثاني والثلاثون.. وكان هاربًا ومختبئًا داخل ديره بالصعيد خوفا على حياته من بطش المسلمين.

فما كان من القائد عمرو بن العاص إلا أن كتب إليه خطابا بخط يده يطمئنه فيه ويعطيه الأمان، ويطلب منه الحضور إليه لأمر عاجل. فلما حضر البابا الهارب قابله عمرو، ورحب به وسلَّمه الرأس المقدس وعشرة آلاف دينار، وقال له: ابنِ بها كنيسة لهذا القديس العظيم تحمل اسمه هنا في الإسكندرية.

احتفظ البطريرك بنيامين بالرأس في قلايته حتى بُنيت كنيسة عرفت باسم الكنيسة المعلقة في شارع المسلة.

استيقظ محمد جرجس من نومه، وتخيل أمامه القديس ماري مرقس الذي قال له:

- أنت الآن تهرب مثل بنيامين من بطش من يتربصون بك، فاعلم أنها إرادة الله ولن تضيع، وأنا تعرضت للذبح قبل ما يزيد على ألف وخمسمائة عام وقد عدت، وأنت أيضًا ستعود، فلا تحمل حقدا لأحد حتى لقاتليك.

لم يستطع محمد جرجس أن يدرك السر في مرور القديس بخاطره، وإن اعتقد أن القديس يضيء له مناطق مظلمة لا يراها بدقة. تساءل عن مغزى إشاراته: هل هي محذرة أم مبشرة؟ أعاد على فكره الكلمات

المبهمة فلم يقبض جيدا على دلالة ما سمع. تنبه أن القطار وصل الجيزة.

(2)

نزل عازمًا على مخالفة توصيات أهله الذين نصحوه بالذهاب إلى أحد أقاربه لأنه في ظنهم سبيل النجاة.. قرر أن يواجه الحياة وحده.. فالله وكيله.. تصور أن الحياة بدونهم لن تكون صعبة مادام يعتمد على نفسه بعد الله.. خرج إلى الشوارع الفسيحة التي تقتحمها بعض السيارات السريعة وعربات الكارو والحناطير، وعربات خشبية يدفعها أصحابها وعليها الترمس وقلل الماء، وعربات عليها قدور الفول المدمس، وعربات تحمل البنى آدمين، وعربات تحمل أقفاصًا بها الكتاكيت والبط، وعربات تحمل نسوة في جلابيب سوداء ذاهبات للعزاء.. طرقات حوافر الخيول على الأسفلت.. دنيا غير الدنيا. شعر بالجوع فدخل محلا للفول والطعمية والتهم ثلاثة ساندوتشات. جلس على مقهى في شارع الصناديلي.. تلفت كثيرا واسترق النظرات للزبائن. قلبه انقبض لحظة أن خطر بباله إمكانية ظهور شخص من البلد. ساعتها سيبدأ الفشل والفضيحة. أبعد الخاطر المرعب. بصعوبة شديدة تمكن من صرفه وكان الخاطر لحوحا كذبابة في الظهيرة. شرب الشاي ثم القرفة وضاق بكثرة دخان الجوزة والصخب. أعاد على نفسه عدة مرات عبارة:

- لابد من الشغل في أسرع وقت.

لم يستطع منع نفسه من الاعتراف بأهمية الأقارب فقد يكون منهم معين.. عاد ورفض الفكرة متقبلًا تأخر

العمل بدلا من أن يكون لقمة سائغة في الأفواه، ومحورا لكل الحكايات، والأهم سهولة كشف الخبر واستخراج دلو الأسرار من أعمق الآبار مهما كان كتومًا.

نهض فجأة وأخذ يتسكع في الشوارع على غير هدى.. الشوارع تفرغ من ناسها تدريجيا مع قرب حلول المساء.. حاول أن يفكر في أي شيء فلاحظ أن رأسه فارغ مثل علبة.. لكنه خلال دقائق تذكر أنه

لا يعرف غير الفلاحة ومصر لا علاقة لها بالزراعة ولا بالري والعزيق.. «ما حدث في البلد رماني في المجهول الذي لا كان على البال

ولا على الخاطر. العمل مطلوب جدًا لأنه يقضي على الحيرة ويهدئ النار الواقعة في دماغي».

أحس أنه خرج من جُحر إلى ميدان لا أول له ولا آخر.. لقد كان محاطًا بالعائلة وسط أفران الدفء والحماية والرجالة والرزق والعزوة والخيل والنخيل والأرض والمحاصيل.. كل ركن في البلد ونس حتى لو جلس في الزريبة مع البقر والحمير.

قال في نفسه: ممكن أشتغل في قهوة أو مطعم فول.. أظنها مهمة بسيطة. أغسل الصحون والأكواب. لن أكون مهندسًا أو أمين خزينة..

لا ليست سهلة.

طرد الفكرة..

مر بعجلاتي، لن يقبلوني، أنا أساسًا لا أعرف ركوبها. مر على ساعاتي، ضحك، ليست معي ساعة. مر على

صيدلية، نظر إلى الأرض. مر بمكتبة، سحب نظراته. مكوجي. مط شفتيه. ترزي. نجار. حداد. جزار. عندما شعر بالتعب جلس في حديقة صغيرة. خلع حذاءه. وقعت عيناه على بنك. وعلى يمينه محلات كثيرة منها محل أحذية وسينما ومقهى وحبوب وعطارة.. أحس أنه خارج الدنيا، وأنه عندما جاء إلى الجيزة لم يكن يعرف أنه سيركب معدية ربما تغرق كتلك التي غرقت في البلد.

تنهد ولاحظ أن الحيرة تزيد من تعبه ويأسه.. لم يتنبه للمساء الذي تسلل بنعومة. تمدد قليلًا على العشب وسرعان ما حط النوم على جسده المتعب.. أيقظه أذان العشاء. شعر ببرودة تنقر بدنه المهدود. مضى إلى المسجد فصلى العشاء مع المصلين ثم تمدد خلف المنبر منتظرا ما يمكن أن تحمله الشمس من وعود للغريب.

في الفجر أيقظه الأذان والمصلون والأضواء.. صلى ونزل إلى الشارع حيث اشترى خبزا وجبنا وخيارا وجلس على المقهى يفطر ويتابع أفكاره.. تداول في رأسه أيسر المهن التي تليق به كشخص بلا خبرة، وانتهى إلى أن الناس ربما تقبله خفيرا. سار على قدميه يجوس خلال الأحياء حتى عثر على عمارة تحت التأسيس.. طلب العمل. وافق رئيس العمال..عَمل فاعلا ولم يكلفه أحد بالحراسة. لم يكن من حقه أن يختار. لم يجد بأسًا فهو قادر على رفع التراب والحجارة والأسمنت والمونة وكل الأثقال أيا كان نوعها.

سأله الريس عن اسمه، قال: سالم عبد الراضي.. كان قد جهز نفسه للسؤال.. حط كيسه في ركن، وظل يعمل معهم إلى أن طلب منه صاحب العمارة أن يبقى لها حارسًا، وهكذا أغلق صفحة الارتحال من عمل إلى عمل، واستقر به الحال في عمل ثابت ومأوي.

كلما سار سالم أو جلس في مكان عثر على شيء مهمل: قلم، زرار، شبشب، خبز، زمارة، ملعقة أو سكينة، مسمار، حلق فالصو أو ترباس، شنكل شباك، مسطرة.. أوحت له هذه الأشياء بأنها ربما تفيده يوما ما ولم يعرف كيف تفيده. الفكرة غامضة، لكنها تلح عليه وتشغله.اقتنع بضرورة تجميعها. كلما سار في مكان ووقعت عيناه على أحدها حملها ووضعها في سيالته، وهي جيب كبير وداخل جلبابه يسع دجاجة، وفي غرفته الضيقة يرميها في شيكارة من شكاير الأسمنت.

كان قد شغله كلام الناس في طريق السفر إلى الجيزة، وإبان عمله في المعمار.. حفر في رأسه الكلام، وقضى الليالي يجتره، ويعيد مضغه ويفرزه.. سمع من يتحدث عن الأيام الرديئة، وفهم من الكبار أن الرديئة هي الناس وليست الأيام، والناس هي التي تصنع الأيام وتلونها حسب مزاجها ومصالحها. وقال الناصحون:

ـ خد من الفجل الورق ومن اللحم المرق ومن الحمام العرق.

يعني لا تبدد وقتك فيما لا جدوى منه واستفد من كل شيء.. وقالوا:

- الدنيا إن جت باض الحمام على الوتد، وإن ولّت قطعت السلاسل.. وقالوا:

- قيراط حظ ولا فدان شطارة.

لم يعجبه الكلام، ليس لأنه خطأ، لكنه -كما قال من فهموا الحياة- هذا خارج عمل الإنسان، حتى الحظ ذاته لا يزور غافلًا ولا يتعامل مع كسلان، لكنه استراح لكلام واحد واعر قال:

- الأمانة لما تزوجت العرق خلفت البركة، وقال الرجل نفسه:

- العِري يعلِّم الغزْل، وقال أيضًا: شعرة من هنا وشعرة من هناك يعملوا ذقن، والقرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود.

لفتت نظره فكرة الكراكيب. ينحني ويلتقط كل شيء متروك في العمارة أو في الشارع... اضطر للسير شبه مُنحنٍ.. عيناه تحدقان في الأرض التي تحتضن كل شيء ساقط أو منسي. وتدربت كل حواسه على الجمع والالتقاط، حتى سمع بأذنه من يهمس لجاره وجاره يهمس له:

- واضح إنه هربان من سجن أو فضيحة.

- شكله سُهُن ومش سهل.

- كل راس مطاطية تحتها ألف بلية.

- لو نعرف سره.

- يبدو خبيثا.. كل كلامه.. ربنا يهدي الحال.. الحمد لله.. نعمة.

ـ سيبه.. سيقع وحده.

جمع المسامير والأكواب، الشباشب والكراسي المحطمة، الأكر والخرق، الأساور الألومنيوم والملابس الممزقة، زجاجات الخمر والخرز، الكراريس والكتب.. نساير الخشب والأسلاك، الإبر والبكر والأحبال والمراكيب.. لما انسدت عليه غرفته استأجر دكانا، وصاحب كل من يفهم في إصلاحها حتى ترجع سليمة وتشتغل ويعرضها للبيع ولو بنصف الثمن.. راجت المهنة وصبت في حجره «فلوس ياما».

اشترى عربة بيد وشغَّل عليها فتى في الثامنة عشرة، يطوف الأحياء ينادي على الروبابيكيا، ونصحه ألَّا يدفع غير صنف القرش والمليم.

قصقص الخرق إلى شرائط وغسلها جيدًا ثم مضى يربط بعضها ببعض، وسلمها لصاحب النول عمل منها سجادة، ومن فروة الخرفان غزل صوف وسلمه لصاحب النول عمله ثلاثة أكلمة، وأصبح مع الوقت كل شغل النول لسالم.

آمن بأن كل شيء في الدنيا صالح يتمد في عمره وتتجدد عافيته.

ـ المطلوب منك يا شاطر كما قال من سبقونا.. لبِّس الأسمر أحمر واضحك عليه.

جرب هذا مع كراريس التلامذة، فنصفها لم يمس، جمع الورق الأبيض ووضعه بين أغلفة ولصقه بالصمغ

والدبوس، سرعان ما ظهرت له زبائن.. وكل شيء لازم يكون له زبون.

آن الأوان يترك البوابة ويستأجر مخزنًا كبيرًا يستاهل ويلم.. عثر على بغيته في بدروم عمارة. أقام فيه غرفة له بالخشب وباقي المساحة للكراكيب. دعا من لهم خبرة في الإصلاح.. يمرون عليها في وقت الفراغ ويصلحون حالها.. العطلان في أيديهم أصبح يشتغل ويدور، والممزق خيطوه ولمعوه وصار يبرق.

في البداية كان مجيء الصنايعية للمشاهدة والفرز وعمل لبعض الوقت، ومع كثرة المعروض احتاجهم ليعملوا لديه اليوم بطوله، وبعضهم استعصى عليه التفرغ.

اشترى عربات جديدة وشغَّل عليها الشباب. يدورون في الأحياء، ويجمعون الروبابيكيا بتراب الفلوس حتى بلغوا من العدد خمسين، بعضهم تجر عرباتهم الكبيرة حمير.. أصل كل السنين ما تمر تزيد الفلوس في أيادي الناس ويهون عليهم أن يتخلصوا مما يملكون، بعد أن كان رميها يتم بخلع الضرس.

أيام بعد أيام بانت النعمة عليه. لاحظ احترام الناس له وسعيهم للاقتراب منه.. يوسعون له الطريق إذا مر وودوا لو ينحنون.. تذكر في ألم كلام مَن قال:

ـ الفقير لا يتهادى ولا يتنادى ولا يتسمع له في الجمع شهادة.

حمد الله وقال: كله بأمره.. نصيبك المكتوب لك قبل الحظ والشطارة.. وفي السماء رزقكم وما توعدون.

طلب من خمسين آخرين أن يحملوا الجاهز الذي تم إصلاحه وأن يتبعوه لبيعه في سوق الجمعة.. قرر أن يغير اسمه إلى محمد الخواجة. ضحك كثيرا من الاسم الذي حوَّله من صعيدي لخواجة في لحظة. أعلن اسمه الجديد.. الخواجة بائع الأجهزة الكهربائية.. بعد سنتين أصبح الخمسون مائة، وبعد سنوات أصبح المائة ألفًا.

تزوج وأنجب من البنين تسعة، وتزوج بثانية وثالثة ورابعة، وانتشر الأولاد في الأرض.

(3)

لم تندمل جروحه، وكيف تندمل وهي عميقة، ودماؤها لاتزال ساخنة رغم مرور الشهور؟! هل تندمل بمجرد إلقاء القبض على مرتكبي الجريمة؟

تحولت الفيلا إلى مدفن له وليس لها. قرر حجز نفسه في سجن إجباري لا يبرحه إلا في الحالات النادرة، وسوى ذلك ليس أمامه إلا أن يلزم مقره الوحيد، ما دامت الأقدار قررت زجه في مصيدة تعسة وصدئة.

كل الوقت للتفكير فيها واستعادة ذكرياتها ورؤية صورها التي تغطي الجدران، غير المئات ساكنة الألبومات التي أعدتها بيديها وسجلت عنوان المكان والزمان والمناسبة.

وقف يتأمل صورة كبيرة لهما في الممر.. كان الباقي من طوله المنكسر كافيًا كي تتقابل الوجوه وهو ممتثل في أسى أمام الصورة وهما يقفان إلى جانب المسلة المصرية، ووراءهما البيت الأبيض في واشنطن، معلقة في البهو الكبير فوق بايوه يعلوه شمعدانان نحاسيان وساعة.. هدية «سناء» إليه في عيد ميلاده.

رن جرس التليفون.. لام نفسه لأنه قرر عدة مرات أن ينزع سلكه ثم نسي. ببطء مد يده ورفع السماعة: نعم!

بلغه الصوت عاليًا:

- سيادة السفير مراد بيه عبد الراضي؟

- نعم!

- معالي وزير الخارجية يحب أن تشرفه غدا في العاشرة والنصف.

تنهد وأجاب بوهن: إن شاء الله.

- لقاء شخصي مع حضرتك.

- شكرًا.

وضع السماعة وعاد إلى الصورة التالية.. صورتهما معا في ميدان الطرف الأغر بلندن.

بعد الحادث المفجع أخرج صورًا كثيرة لها وكبَّرها، وغطى بها الجدران.. تملأ الفضاء كما تملأ روحه وقلبه وعقله، وتتجلى أمام عينيه في كل مشهد، وتلون ببسمتها المشرقة كل الأركان وتشغل بحضورها النسيمي كل المسافات.

يتساءل صباحا ومساء.. كيف يعوض غيابها؟ كيف يستعيدها؟ بل كيف يحييها من جديد؟ يقول: لست بحاجة إلى أن أتذكر بأن من ذهب لا يعود، لكنها يجب أن تعود وتبقى طوال حياتي على الأقل لتؤنسني بروحها الأثيرية وشعورها الملائكي.

كل أحاديثه يوجهها إلى نفسه وأحيانًا إلى الله، وأكثرها إلى وداد، سلحفاة اشتراها لها من الهند. عندما داعبتها ولمست درقتها بأناملها الرقيقة.. لم يفكر لحظة، اشتراها من الهندي الضئيل الذي كان يجلس أمام قفة بها عدد كبير من السلاحف وفوقها كلب صغير.. تهلل وجهها.. حملتها إلى فمها وقبلت خطمها الصغير.. توجست السلحفاة وتراجع الرأس إلى الكهف.. حاولت

سحب يديها وقدميها، لكنها عادت فأخرجت رأسها وقبَّلت سناء.

سألته: لماذا يضع الرجل «الكلب مع السلاحف» هل ستهرب؟ بعدها ضحكت بصفاء غريب.. وقف يحدق في صورتها وهي أمام جامع أيا صوفيا في اسطنبول، ثم تحول إلى صورتها أمام كنيسة نوتردام بباريس قبل أن يذهبا إلى متحف اللوفر مشيًا على الأقدام.. انتقل إلى صورتها وهي في ميدان سان مارك بفينيسيا.. سالت دموعه. يحدث هذا كثيرًا.. كان الحمَام كله تقريبا قد اتجه نحوها وإحدى السيدات في الصورة تحدث جارتها عن الحَمَام الذي تجمع حول سناء دون الآخرين. طلع على كتفيها ورأسها. توزع على يديها وحاول تسلق فستانها الموف، وكأنه يدرك مدى الطفولة التي تشع من عينيها وقلبها مع وجهها الباسم.

فوق بوفيه السفرة كانت لها صورة في سوق الحميدية بدمشق وهي ترتدي الطربوش الأحمر وتحته شعرها الكستنائي الكثيف، وصورة لهما في الجامع الأموي.

زرنا سوريا ثلاث مرات ولم تتم الرابعة التي طلبتها قبل رجوعنا المفاجئ للقاهرة. قالت في عدة مناسبات:

- لا أرتاح في مكان غير القاهرة إلا في سوريا، سواء في دمشق

أو حلب، حيث روح الشرق الجميلة وبخور صاعد من أيام بعيدة طيبة وحنون.

تذكر كيف رعت والدته إبان مرضها الأخير، وأصرت على أن تطعمها وتسقيها بنفسها، وتسندها لتمشي بدلًا من الممرضة، مؤكدة أن المشي له فوائد لا تحصى حتى لمن لا يقدر عليه. اختارت لها عددا من اسطوانات الموسيقى العالمية والأغاني المصرية الشجية.. كانت تقول:

ـ الحياة تهاجم بضراوة وعلينا أن نقاومها بالموسيقى والفنون.

المرور على صورها، برنامجه اليومي الذي يشفيه بعذاب التذكر ولو مؤقتًا.. يرفض أي محاولة لمقارنة سناء بإنسانة أخرى حتى أمه.. مقارنة بالقطع ظالمة للآخرين.. المقارنة لا تكون إلا بين أنداد أو نظائر.

لم يمن الله عليهما بالإنجاب، لذلك حاول أن يشغلها بالسفر، وحضور حفلات السفارة في الدول، التي كلفته الخارجية برئاسة بعثتها الدبلوماسية، إلى أن فاجأته برغبتها في تأسيس جمعية لرعاية أطفال الشوارع والأيتام.. وافق دون أن يناقش أو يسأل عن التفاصيل. تمنى لو أقبلت على القراءة لكنها اعترفت له غير مرة أنها تحب الناس أكثر، وخاصة الأطفال كما تحب الحدائق والزهور والطبيعة. أسرعت بوضع التصور.. اجتذبت إليها الفنانين ورجال الأعمال وصديقاتها زوجات السفراء المصريين والعرب والأجانب.. مئات الصور تحتفظ بها في دولابها مع الأطفال.

منذ عامين، عادت إلى القاهرة وحدها لحضور حفل زواج فريد أصغر إخوتها. تعذر أن يرافقها، وبعد شهرين وصل القاهرة فجأة من مدريد، وعلم أنها بالجمعية فقرر أن يزورها.. طلب من سكرتيرتها ألا تخبرها بحضوره. مضى إليها حيث كانت تسرح شعر طفلة وتعمل لها الضفائر كما طلبت، ثم تحولت إلى طفل آخر لتساعده على إعادة ارتداء قميصه الذي تبادلت أزراره مواقعها.. اكتشفت وجوده فحيته وحياها.. ابتسمت وهي تقول:

ـ سأفرغ لك حالًا بعد توزيع وجبة الغداء.

متعجبًا رآها، وهي تعلمهم الطريقة الصحيحة لتناول الطعام وتشرح لبعضهم كيف يمسك الملعقة والشوكة، وأهمية مضغ الطعام، وأكدت على ضرورة البدء باسم الله، والختام بحمد الله وشكره.

قال الوزير:

- لن تكون أفضل وأنت في مكمرة الحزن.

- شهر فقط!

- أنت خبرة كبيرة يا مراد. لا أتحدث إليك بصفتي الرسمية، ولكن من منطلق الصداقة والزمالة التي جمعتنا على مدى ربع قرن.

- لا أستطيع لقاء أحد. لا أملك القدرة على التفكير أو الكلام. قنبلة انفجرت في روحي وعقلي.. أنا بحاجة إلى الترميم واستعادة اللياقة النفسية. هذا حقكم وحق البلد عليّ.

جلس على الكرسي الهزاز في مكتبه.. تعوَّد أن يقرأ عليه، ويفكر فيها وهو مستسلم لهزات الكرسي البسيطة، التي تذكره بأول مرة تعلم فيها قراءة القرآن في كتاب الشيخ قطب. كان الشيخ يهتز عند القراءة فقلده متصورا أن القراءة لا تصلح بدون الهز، ولما فهم بعد ذلك

ألّا رابط بينهما كانت قد أصبحت شبه عادة، ليس مع القراءة ولكن مع الكرسي، حيث تحقق له متعة الاهتزاز الذي تسترخي معه الأعصاب، ويبدأ العقل في التحليق حرا من كل قيد.

مضى يفكر فيها حتى تمتمت دموعه، فشعر بالراحة عندما توازنت بأعماقه حالة الحزن مع حالة الرضا. تهبط السماء إلى روحه وتربت عليها، وتهمس لها بضرورة قبول مشيئة الرب التي نسجت خريطة الأعمار على نحو يتعذر على عقول البشر إدراكه، وقد خلق الله الإيمان لتجاوز المسافة بين البشري والإلهي.

في أعمق أعماقه يردد دائمًا:

ـ اللهم لا اعتراض.. لماذا الموت اختطاف. صيغة غير إنسانية. هناك بشر ملائكة. أنت من خلقتهم، كانوا القادرين على أن يجعلوا الحياة جديرة بأن نحياها.

سمع صوتها الرقيق يتسلل إليه من وراء الجدران ومن أعماقه:

- أرجوك يا مراد لا تحزن.. سنلتقي قريبًا في حياة دائمة والبعاد أقصر مما تتصور. أرجوك. لا تقل إن الموت

صيغة غير إنسانية.

يتلفت في كل اتجاه متصورًا أنه سيجدها. اكتفى أخيرا بأن قال لها:

- وحشتيني يا غالية.

- وانت كمان.

- تايه يا سناء من غيرك.

- عش حياتك كأني معك بالتمام.

- لا أقدر.

- جرب.. تنزه وسافر واشتغل وكُلْ، لكن إياك.

- أبدًا.

- لا تلعب والأفضل أن تتزوج.

- مستحيل.

- أشوفك على خير.

ظل لحظات في المنطقة الفاصلة بين وجودها العذب وغيابها الصعب..قام فوضع في الكاسيت شريطًا لصباح فخري.. كانت مدمنة استماع للأنغام الشرقية القديمة ومنها ناظم الغزالي وعبد المطلب.. اعتاد بعد انتهاء الأشرطة وانسحاب الأصوات الجميلة إلى الصمت والبعاد أن يتسلل إلى دولاب ملابسها فيتأمل ملامحها المرسومة بوضوح فوقها وحولها وبداخلها. الملابس أكثر من أي شيء آخر منشطة للذاكرة التي تستدعي الأحبة الراحلين.

يبدأ بما كانت تحب من الفساتين.. تمتد أصابعه بمنتهى الرقة وتلمس ثوبًا عزيزًا يملك بلاغة الحديث

إليه بما كان منها ومنه. يقربه من صدره ويعانقه ثم يمرر قماشه على أنفه ليشم عبيره وعبيرها والأيام المختبئة فيه.. يسافر معه إليها حيث مملكتها البعيدة في المكان لكنها قريبة تسكن روحه المتعلقة بها. يسألها عن مكانها وزمانها، وعدد دقات قلبها، وماذا ترى من حولها، وبماذا تحس، وهل حقا له مكان عندها في الجنة المجنحة فوق السماوات. يدق بابه الحزن العميق برهافة فتتسلمه الدموع، ولا يعود قادرا على استدعاء المزيد من الذكريات التي تؤثر المراوغة إشفاقًا عليه.

تكررت تلك المشاهد كما تتكرر الأيام أحيانا حتى أذعن للقضاء، وإن لم يستطع كبح نفسه عن صب فادح اللعنات على الذين اختطفوا السعادة من حياته، ولو اختطفوا حياته كان أفضل من تركه كخرقة ممزقة ومهانة، بالت عليها كل الحيوانات وعاشت في العراء أتعس الليالي.

بعد أن غابا عن القاهرة ستة أشهر كاملة في كوالا لمبور عادا في إحدى الليالي بشكل فجائي وبلا سابق إعداد. طلبته أخته في أمر عاجل ولم تفلح التليفونات في علاج الموقف المتصدع.. كان الخلاف شديدا بينها وبين زوجها ولم يبق إلا الاتفاق على شكل النهاية.. ترك سناء وأسرع إليهما يحاول إطفاء النيران المندلعة بضراوة بسبب اكتشافها زواجه من أخرى.

في نحو الثانية عشرة اتصلت سناء بزوجها لتطمئن. تحدثت إلى وردة أخته وزوجها في محاولة للتقريب،

واعتذرت لما تعانيه من إجهاد شديد وبوادر أنفلونزا اضطرت معها لابتلاع كم من المضادات الحيوية. أسرَّ إليها زوجها بأن المصيبة مضاعفة لأن «سمير» الذي سعى لتعيينه بوزارة الخارجية ضرب المحظورات وتجاوز الخطوط الحمراء، فهو دائم السهر مع أصدقائه وسكير، ووضعه في الخارجية مهدد.

تناولت ملعقة عسل نحل، وأطفأت الأنوار، ودخلت الفراش، وسرعان ما ابتلعها النوم الذي لبى دعوة الإجهاد والمرض والسفر الطويل والمضادات الحيوية.

(4)

سمعت عنه كثيرًا فرأيت أن أزوره. أدور فيه.. أتعرف وأسمع.. أسأل وأجمع.. أحلل كما تعودت أن أفعل مع كثير من التجمعات.. أثق أن المكان جاذب.. يقولون رواده في اليوم الواحد يتجاوز عددهم مائة ألف من طبقات وشرائح مختلفة، خاصة المتوسطة والدنيا.. معظمهم من الموظفين والعمال والعاطلين.

بالإضافة إلى جاذبية المكان فهو لا شك عينة مثالية لقاع المجتمع.. لن يضطرك البحث لتعقبها في الأحياء المتباعدة، فضلا عن تعذر السيطرة على الشخصيات المنطلقة في الشوارع والحارات لجمع البيانات، ولزوجة الفضوليين وأنوفهم المزعجة.

هناك تلتقي وتعيش فئات تعرفها، وفئات غريبة عليك، لكنها جميعًا دون شك لديها بعض الأسرار.. ولديها ثقافة القيعان والسراديب.. المختبئ والمتواري.. بعض ملامح الهاربين من ثأر أو سجن أو من فضيحة، أو من أعمال غير كريمة، فقد بلغني أن بعض البائعات كن ممن عملن سنوات كبنات ليل، ثم تخلصن من أعباء هذه المهنة الرديئة التي لا يعيبها العار فقط والازدراء الاجتماعي، بل السخط الذي يأكل روح الممارسات أنفسهن بسبب اضطرارهن لاختيار هذا المصدر البشع للارتزاق، والسخط لأنها مهنة لا تخلو من الخطر فكم ماتت زميلات لهن ذبحًا أو خنقًا أو ضربًا.

هذه النماذج البشرية إذن أساس عملي، ولعلها تكون مادة جيدة تفيدني في إعداد بحث رائع مطلوب أن أعده للترقي في الجامعة، وأنا على ثقة من استثارة د. كيدمان الذي سيقفز فرحًا وحماسة، وسوف يطلب المزيد.. ليته يسعى لاختياري أستاذًا في أي جامعة أمريكية حتى لو تحت الأرض كما فعل مع د. يوسف النجار.

نبتت الفكرة وتصدرت كل أفكاري بعد أن دعاني الدكتور كيدمان وسألني:

- أليست لديك فكرة يا د. نادر لبحث يمكن أن نتوسع فيه ليصبح مؤتمرًا؟

ابتسمت وسألت نفسي مندهشا: هل يقرأ العفريت أفكاري؟!

أجبته:

- اليوم الأربعاء.. ربما أحدثك عن فكرة مثيرة يوم السبت.

أرجأت إعادة بعث الحماسة في نفس أخي مراد، وتذكيره ليسعى لنقلي إلى وزارة الخارجية.

تغلغل في أعماقي إحساس يقيني بأن هذه الزيارة سيكون لها جدواها بشكل يمكن أن يؤثر على مستقبلي العلمي.. المهم الرصد المتأني، وأهم منه الصبر فقد يضيق بي من أسألهم، يريد الزبائن أن يشتروا، ويريد الباعة أن يبيعوا لا أن يشاركوا في الحوار.

لبست «كاجوال» واضطررت أن أتخلى عن البايب، فسوف يثير التعليقات والشبهات.. وضعت على رأسي قبعة رياضية نبيتي توحي بالبساطة من ناحية، وتغطي دائرة الصلع التي تتسع يومًا بعد يوم.. خطفت نظارة الشمس، وانطلقت وحدي دون أن أسرِّب خبرًا حتى لأعز الأصدقاء.

استقبلتني الأصوات العالية والصخب.. ميكروفونات وصراخ.. معالم المشهد متراكمة ومتلاحمة.. بشرًا وبضاعة.. المعروض فوق العربات والترابيزات مكدس ومهمل.. أكثره غير جيد.. بعض السلع صنعها أصحابها فيما يبدو تحت سلالم البيوت وفوق الأسطح أو في الجراجات والخرائب.

فجأة صرخت سيدة كانت تسير إلى جواري بين أكداس اللحم المتلاطم:

ـ يا لهوي.. سرقوا البُك.

عندما رمتني بنظرة لافحة استولى الرعب عليّ.. تسللت بعيدا وتركتها تصرخ والبعض يسألها بلا جدوى ويواسيها، لكن الكل يمضي، فالطريق لا يحتمل الازدحام.. الباعة هم الذين صاحوا في الناس كي يتحركوا.. لا يريدون وقف الحال.

انسحبت بعيدا عن المنطقة الملتبسة وإن انطبعت صورتها في رأسي فربما يكون لها مكان في الدراسة.

لمحت سيدات فوق الأسطح المجاورة يتناولن فطورهن ويثرثرن ويضحكن حتى تستلقي بعضهن.. كن

يستمتعن بالشمس الشتائية وأشعتها اللذيذة التي تدغدغ الأجساد.. بعضهن يفرّطن البسلة ويلتهمن اليوسفي ويشربن الشاي في وقت واحد، واحدة فقط كانت تدخن.

يعلن أحد الباعة بأعلى صوت أن بضائعه مهربة من الجمارك، ويرد عليه آخر بأن الملابس الفخمة التي يعرضها بملاليم مسروقة من شركة كذا ومحلات كذا ومول كذا.. وكلها أماكن مشهورة.. تستولي الدهشة عليّ بسبب هذه التصريحات الجريئة التي لا جزاء لها إلا السجن.

سيدة في الركن تعد على وابور جاز الشاي والحلبة الحصى والقرفة لمن يريد، بينما رضيعها في حجرها يقبض على ثديها الأبيض الممتلئ، وقد خرج خصيصًا من مكمنه عبر فتحة مشقوقة من الرداء ليصب في فم الرضيع ذي الوجه الأسمر ما يكفيه حتى يسكت. إلى جوارها عنزة تلتهم قشر اليوسفي، ووراءها طفلة صغيرة نائمة ودافسة رأسها في دفء وطراوة مؤخرة الأم، وإلى جوارها فيما يبدو أنه الزوج رجل أسمر نحيل وصامت مختص بالشيش والحجارة والمزاج بدا مشغولًا بتسليك الشيش بسيخ رفيع وطويل.

طبّال يمسك بدف. ينقر عليه بحرفية كخلفية موسيقية لنداء بائع الملابس القديمة:

ـ الجينز بعشرين وتعالى شوف.. غريبة ياولاد.. الجينز بعشرين وتعالى بص.. البس واتهنا بعشرين.. أبو

مية بعشرين.

فجأة، وبالغريزة أسرعت فتواريت وراء بائع ضخم يقف أمام بضائعه من المكانس مختلفة الأنواع.. لمحت سيدة تشبه تمامًا زوجتي السابقة التي لم تبق على ذمتي إلا عدة أشهر.. لم تختلف كثيرًا عن التي سبقتها ولم تبق معي غير عام بحجة أنها لاحظت أن طباعي لا تتفق مع طباعها، واعترفت أنها قاومت الإنجاب مني منذ أول يوم لأنها لمست مبكرا صعوبة الاستمرار.

أشحت بوجهي بعيدًا حتى لا تتعرف عليّ، ولو تعرفت لن تعبأ.. تتمتع طول عمرها بغطرسة فارغة.. لا ليست هي.. هيا.. السوق لا يسمح بمزيد من التذكر.

وجوه الباعة معرض مثير من الملامح، كأن سوق الجمعة ليس سوقًا للبضاعة بقدر ما هو سوق للبشر.. بائعة شابة يبدو أنها عروس جديدة خرجت للسوق بعد أيام قليلة.. كفوفها مِحنيَّة، ووجهها مرسوم بدقة بالذات الحواجب، وشعر البشرة يبدو منتوفًا منذ أيام، فالوجه الأبيض ناعم تمامًا والكحل بزيادة، والطرحة ملفوفة بإحكام، الغوايش تبرق على الساعدين المكشوفين، لعلهما يستدرجان بنضارتهما بعض الزبائن.. حالتها المتوهجة والمختلفة تدل على أنها جاءت إلى السوق بعد أن استحمت واستمتعت بحمَامها.. نِفْسي في زوجة مثلها.. مطيعة وبلا شخصية وليس مهما أن تكون متعلمة ويفضل أن تكون جاهلة.. لا عمل لها إلا إجابة مطالبي دون كلمة إلا عندما أسمح لها.. مشكلة المرأة

المتعلمة أنها صاحبة رأي وهذا يدفعها للمقاومة والعناد، ورأيك في العادة لا يعجبها، وأنا رجل شرقي لم يؤثر فيّ التعليم كثيرا،

فما زالت رغباتي الشخصية في المأكل والمشرب والجنس والعلاقات على حالها. الإقامة سنوات بميتشجن لم تغير من أفكاري عن المرأة والزواج. جمال المرأة في طاعتها وخدمتها لزوجها وأولادها. في اهتمامها بمزاجه وهواياته وراحته ومراعاة كل عاداته ونزواته وتقبلها حتى لو كان من بينها الشخير. ومطلوب منها أن تجعل جسمها خاصة مناطقه الجذابة ساخنة دائمًا وتحت الطلب في أية لحظة.. الطعام شاغلي الأول بعد الجنس وقبل الثقافة. لابد من طعام جديد كل يوم، وكل وجبة تختلف عن الثانية. ولا أقبل من زوجتي أن تنشغل بأي شيء غيري وما أفكر فيه.

إلى جوار العروس رجل جهم الملامح، بوجهه أخدود عظيم يشق الجانب الأيسر بالطول من السوالف حتى الذقن في شكل قوس.. كيف قبلته زوجًا؟! ما زالت العائلات تمارس ضغوطًا على البنات خشية العنوسة.. لابد أن تكون هناك صيغة لوقف هذه الضغوط والملاحقة.. لابد أن التعليم سيفيد.. خسارة.. بنت كوجه القمر تتزوج من متشرد وبلطجي بحجة أنه حماية لها من المجتمع. «ضل راجل

ولا ضل حيطة».. في حالة كهذه ظل الحائط أفضل كثيرًا.

اجتذب نظري رجل بدا كأنه يلبس قناعًا.. معالم وجهه كأنها ليست من صنع الله.. الأنف كبير والفم واسع والعيون صغيرة تركب فوقها الحواجب الغليظة.. الأذنان كبيرتان.. الأغرب أن البشرة ملساء تمامًا كأنها من البلاستيك، لا ندوب فيها ولا أثر لشعر في الذقن أو الصدغين، بينما هناك شارب كثيف.. شعره غليظ كأنه مصنوع من السلك.. رسم كاريكاتوري أو شخصية كارتونية من إبداع رسام فاشل.. أما الأصوات فتخرج من فمه بكل الطبقات والنغمات، وبعضها كأنها لحيوانات تتكلم في فيلم.

لم أبذل جهدًا لإقناع نفسي بالاستمرار وتكرار التجربة. حالات اجتماعية كثيرة ومتعددة ووراءها لابد قصص ومعارك وقضايا ومحاكم وسجون ومتناقضات وأحلام.. فما الأسباب وما النتائج وكيف حدث كل هذا الحراك؟

كيدمان سوف يبهره البحث.. كم هو مشتاق دائمًا لمعرفة ما يجرى خلف الكواليس المصرية! قال كثيرًا إنه على ثقة: إن الأبحاث حول الشخصية المصرية ربما تستغرق عشرات السنين على يد مئات الباحثين، لأن مصر بلد العجائب والغرائب وليس هناك سياق واحد ينتظمها أو يحدد ردود أفعالها في أي زمن.. ابتعد الآن يا كيدمان.

مال فتى وقرص جارته الشابة في أعلى فخذها. ابتسمت بغضب مزيف وضربت يده بشدة رقيقة.. عاود

القرص واللمس إلى أن قفزت مبتعدة تنادي على كوز العسل الذي لا تهتم ببيعه.

(5)

«إذا وصل بك الميكروباص، الذي سيحملك محطتين فقط من السيدة عائشة إلى التونسي حيث نهاية الخط وأول سوق الجمعة، لابد تنزل يا ابن عمي لأن الزحام الذي هو بروفة ليوم القيامة لن يسمح لك بأن تمر راكبًا سيارة ولا حتى بسكليتة بعجلة واحدة.. الكل لازم ينزل ويأخذها على القدمين. وشاطر من يتمكن من شق طريقه بأمان وسط خلق الله، وعربات الكارو وترابيزات الفرش وأكوام البضائع من كل شكل ولون، غير الفول والطعمية والكبدة والمشاريب، وكراتين الملابس الداخلية، وأحواض السمك الفارغة والمملوءة وصناديق الأحذية، وأقفاص الحمام والعصافير والانتيكات، ولوازم النسوان وكل عجيب وغريب، وكل ما تعرفه، وما لم يخطر على بالك يومًا.

صلي على اللي يشفع فيك.

سأكون يا ابن عمى في انتظارك أمام ترابيزة كبيرة عليها كل التوابل والعطارة، ما سمعت عنه وما لم تسمع.. البردقوش وماء الورد. الجنزبيل والقرفة. الكركديه والحلبة. الفلفل والكمون. الينسون والشمر. الحنة والبهارات. جوزة الطيب. المسك والبخور الجاوي. النعناع ولبان الدكر والزعفران.

على شمالك تجدني بعد حوالي مائة خطوة، مجاور لفرش كبير، من بعيد تلمحه عيونك، يبيع الستائر والمفارش والمخدات والملاءات ولوازم سراير العرسان..

عقبالك. فقط اسأل على شطة. يعرفني ألف بياع حتى الزبائن أكثرهم يعرفون ابن عمك، وراءنا جبل المقطم، وأمامنا بيت مهدود، على جانبه سبيل لزوار القبور والعابرين.

لا تجعل قلبك يفتح بابه للهموم.. عقلك لم يعد له لزوم. ومهما كان مكسبك ملاليم، حط راسك على الوسادة وارضَ بالمكتوب.. توكل على من خلق الكون ونشاه، لا ينسى أبدا عبيده، وسلام يا ابن عمي.. أشوفك بألف خير، انت وكل أهل البلد».

كان صعبًا أن أحكي له بالضبط حقيقة الأحوال.. وهل كان يصح أهرب بالكلام منه، وهل كان يصح أن أعمل له البحر طحينة وعسل؟ وهل كان يرضي ربنا أصدمه وأقول له ابن عمك ضاع في شوارع المحروسة، ومقدر ومكتوب أرجع عن قريب للبلد حافيًا؟ هل كان من الأصول أفضفض وأقول: إني بالعافية ألقى عشايا وإني أكمله نوم؟ يستحيل أهزمه أو أخدعه حتى لو كنت أنا هلكان.. أنا وهو وكل خلق الله على فيض الكريم.. صلوا على من بُعث للعالمين رحمة. «عليه ألفين صلاة وسلام».

خلونا في الموضوع المهم.. أنا قلبي انشبك وأصبح في غير طوعي.. دماغي تحول، وما عاد لي قرار، كل تفكيري في بشاير.. لعبت في رأسي وفتحت فيها من السكك والدروب ما يؤدي إليها.. إذا رفعت عينها في

عيني وسلمت للفضا نظرة، نفذت بين ضلوعي وفرفر قلبي كما حمامة شقها سكين.

بشاير.. ست توزن من الرجال عشرة.. وما العمل وأنا ساكن في شقة تحوي من الرجال عشرة؟ أربعة منهم هنا في السوق، وثلاثة شيالة في سكة حديد مصر، وواحد عتال على نقل خضار وفواكه من الجناين والغيطان لسوق العبور، وواحد صبي قهوة وآخرهم غريب الشأن وماله عَدْلة وكل يوم بكلام.. مرة يفوح منه العطر وعامل قُصة، ومرات جربان، مرة مكسي ومرات عريان، مرة يرمي الفلوس رمي، ومرات مفلس، لكنه في كل الأحوال «يمزع ويفشر» عمَّال على بطال. أبدا لا تبعد عنه سرقة كتابي الوحيد الذي أواظب على القراءة فيه، أغاني وأشعار جاهين ومرسي عزيز ورامي والتونسي.. أنا في غيظ ما بعده غيظ، وأصبر على الجار السّوْ يا يرحل أو مصيبة تشيله.. الود ودي أفكر له في تفكيرة تبعده عنا.. عقلي وقلبي ووقتي يا ناس سلمتهم لبشاير.. تؤمر وتنهي كما تريد وأنا راضي.. المهم حبل الأمل في الوصال لا ينقطع حتى أنول المراد من رب العباد.

الحلوة تبيع شباشب بلاستيك، رجالي وحريمي وأحذية أطفال صغيرة ملونة.. لها وجه أسمر وملامح تحل من المشنقة وعيون عسلية كبحر وسيع ومحيط. ظروفها مثل ظروفي ولا يهم جلبابها المتسخ وطرحتها الممزقة.

مجرور أنا كسمكة في سنارة لصاحبة الوجه الجميل، القاعدة قدامي.. أنا منياوي وهي من بهتيم.. نفسي يكون لي في قلبها مطرح.. قال عرفة بائع الصُّرم.. عندما أطبقت الحيرة على مراوحي، ملت عليه اسأله رأيه:

ـ لا تسلم لها.. إن كيدهن عظيم.

الله يسمَّك يا بعيد.. اندفعت فيه:

ـ أسلم لها إيه يا عرفة يا تعيس من يومك، وأنا في الأساس شحات.

ـ وابنها؟

ـ في عيني.

ـ والسكن؟

ـ المقابر جنبنا.. تلمنا.

ـ والمصاريف؟

ـ لا تعقدها.. حصيرة وقلة.. وبالنهار السوق يطعمنا.. كل الأشداق لها رزاق.

ـ تضحك على نفسك.

ـ يا ابن الحلال.. المهم الرضا، واللقمة والهدمة آخر شيء.

ـ ربنا يهدي لك الأحوال.

الغريبة إن الحيرة تبددت بعد حديث عرفة. قلبي نفش وانتعش ملأ قيعان صدري وكان عطشان حنية، رفعت رأسي للسما.. كان السحاب يمر.. يفسح الطريق للشمس حتى تراني..

أنا والله طيب وراغب خير.

في يوم أخذت ابنها في حضني.. شافتني، تبسمت.. رقص قلبي وداخ.. الولد ولدي يا ضيْ العين.. تقابلت نظراتنا وتعانقت رغم الزحام.. تحركت عيوني وراء عيونها حسب الفراغات التي تطل بين صفوف العابرين.. يسألني الناس عن أسعار الفلفل والكمون أجيبهم بأسعار القرفة والينسون..

ـ وبكام يا عم المستكة؟

ـ ببلاش يا عروسة.

ـ يا بني هات بجنيه شمر.

غمزت بعينها وعدلت الطرحة.. نط قلبي ودق.. هبيت من مكاني.. خطفت ابنها وأجلسته على الدكة.. هربت من الزباين والبضاعة.. الله وكيلي.. شققت سبيلي بين كتل البشر. في أقل من ثانية كنت بجوارها وجهها اتفتح من المفاجأة وشهقت.. تفلت في عبها:

ـ يا شطة.. إخص عليك.

سحبت يدي يدها وحضنتها. يدها دافئة. سمعت فيها نبض قلبها الذي يخبط.. قالت:

ـ اتجننت؟

ـ أيوه.

ـ الناس يا وله.

الكلام يفرح.. رجع قلبي يتنطط.. ابتسمت وتذكرت يدها.. سحبتها وتلفتت حواليها، لقطت عيني نظراتها وهي تتجه إلى هاشم في محل المفروشات. وجدته

يرصدنا وفي عيونه شرار.. الغيرة ترعى في قلبه.. لا يا صاحبي.. آخر يوم في عمرك لو قربت منها.. سيبني يا ابني أرسى لي على بر.. لا تلخبط غزلي، ولا تعكر مياهي.

ـ وبعدها يا بشاير.

ـ كل شيء بأوان.

ـ الحب قبل المال.

ـ طبعا.

ـ طب بللي ريقي.

ـ اطمن.

ـ ياه لو ضمنا يا بشاير بيت واحد.. حا تكوني فيه ست الستات.

ـ فرجه قريب.

في اللحظة ذاتها شقت الكون صرخة.. صرخة رفيعة إنما تزلزل. لم أعرف تماما مصدر الصرخة.. حاولت ألا أهتم لأكمل سكتي معاها.. مشغول أنا من ساسي لرأسي بمصيري المعلق بقلب حائر.. انفجرت ناهضة وجسمها كله ينادي عليه:

ـ ابني.

انتفضتُ من قعدتي لأقف وأتبعها.. ارتبكتُ حتى كدت أقع.. على الأرض سبقني كفي وانسندت عليه. ماء بارد سكبوه على نار. طارت الأفكار. تبدل في لحظة كل شيء.. ماله ابنها؟

قمت أجري نحوها.. الصراخ فظيع.. الولد الشقي وجهه بشعره مغطى بالشطة.. يدعك فمه وأنفه وعينيه.. يكاد يختنق.. الوجه أحمر في أزرق في أسود.. كرة من لهب.. يتلوى وينتفض.. أنا قلبي انخلع.. أدركت أخيرًا المأساة.. غرف الولد من الشطة وأكل.. يخرب بيت من أنجبك.

في ثانية خطف هاشم الولد وطار على المقهى وهات يا غسيل، وبشاير هات يا صويت ولطم.. فجأة مالت على بضاعتها.. أخذت تسحب الشباشب وتضربني في رأسي وصدري ووجهي.. بدت قوية ومكوية.. تضرب كوحش كاسر، بكل أعصابها وغضبها.. يدها ثقيلة وأنا أدافع بكفوفي بدون جدوى.. الضرب واصل.. كلما الشباشب تمزقت سحبت غيرها.. رجالي وحريمي.. لا يمكن يكون ما جرى لي ضرب حبيب ولا كان ده العشم.

شعرت كأن السوق كلها تضرب معها.. لم أجد أحدا يدافع عني أو يقول كلمة تخفف.. ظهر في النهاية شخص يسأل عني.. دلُّوه عليَّ.. كنت قد وصفت له عنواني بالضبط وزيادة.. وصل من البلد في اللحظة ذاتها التي ضاعت فيه كرامتي ورأسمالي والأمل الذي في الطريق.. الأمل ضل وابن عمي وصل.. أخذني في أحضانه.

قلت له وأنا أغالب دموعي: العار يا ابن عمي أطول من العمر.

بعد شهر وشهيِّر والتانى قصير، تزوجت بشاير من شطة.. وهاشم رقص في الفرح لما قالوا له كفاية.

(6)

في الواحدة بعد منتصف الليل، دخل ثلاثة لصوص فيلا السفير مراد الخواجة مرتدين الأقنعة. مضوا ينقلون إلى سيارتهم نصف النقل مطفأة الأنوار كل ما غلا ثمنه وخف وزنه، وبعض التحف كبيرة الحجم حتى امتلأت السيارة، وانتقلوا إلى حجرة النوم حيث توقعوا وجود المجوهرات وسرعان ما عثروا عليها، ولم يتمكنوا من فتح الخزانة أو حملها فاكتفوا بما جمعوه.. لطمهم صوت متحشرج:

ـ سناء.. سناء.

في ركن من البهو الصغير بين الحمّام وحجرة النوم كان الببغاء ينادي صاحبته، وقد أدرك الخطر بعد أن داهمته غفوة. مضى يصرخ ويضرب أجنحته بشدة في جدران قفصه حتى اندفع إليه أحد اللصوص فحمل القفص وأسرع إلى العربة علّه يسكت، لكنه واصل صراخه إلى أن غادر الفيلا.

كان اللص الثالث بالحمام قد سمع حركة بغرفة النوم، فأطل برأسه ورأى امرأة في ثوب شفاف يخدرها النعاس، تسأل وهي لا تكاد تصلب طولها.

ـ هل عُدت يا مراد؟

أسرع اللص بضربها بتمثال فينوس البرونزي ضربة ثقيلة على رأسها، واندفع خارجا محتفظًا بالتمثال في يده ليلحق بالسيارة، التي انطلقت على عجل تشق طريقها في ظلام المنطقة الهادئة.

لم تمر نصف ساعة حتى وصل مراد.. راعه ما وقعت عليه عيناه.. كل الغالي ذهب. اللوحات العالمية التي زينت الجدران.. التحف الثمينة.. الفيلا تبدو كالدجاجة المخلية.. جدران وأثاث بارد.. لمح جسد سناء على الأرض فانكب يهزها. تاه عقله. أدرك أن الخراب اكتمل.. جلس على الأرض من هول الذهول. كانت أمام عينيه جثة هامدة كقطة دهستها سيارة نقل. الجسم طري ودافئ.. ارتجف. فقد القدرة على التصرف. لم يعثر على أي أثر للحياة في الجسد المسجى بإهمال. رأسه على وشك الانفجار. أحس بالتداعي. تماسك أخيرا واستدعى الخفير العجوز.. استسلم لسلسلة الاتصالات والدهشات وحمى الفجيعة.

قبل أن يمر شهر كانت الشرطة قد قبضت على اللصوص القتلة عن طريق باعة الذهب ببني سويف.

توقف تقريبًا عن الكلام. انتهى الكلام لما غادرت الدنيا سناء.. توقف تقريبا عن الطعام.. ليس لأي طعام مذاق مهما كان شهيًا.. المذاق الحلو اللذيذ مصدره سناء.. النزهات والتصوير لمن؟ الهدايا الجميلة لمن؟ الحب والفرح والحنان لمن؟ بل لمن العمل والمناصب والسفر؟ وهذه الفيلا لمن؟ وفيلا الإسكندرية وأرض البدرشين.. لمن إلا لها.. لابد أن يبقى كل شيء لها حتى بعد الغياب الأبدي.

اعتذر عن السفر والندوات والتكليفات. فضَّل التأمل وقراءة كتب الفلسفة.. وهيمنت على عقله مشكلة

الإنسان. هل هو مخير أم مسير؟ وتوقف طويلًا عند يوم الحساب فلم يجد خلال الكتب التي قرأها النور الهادي لشكل هذا اليوم ومسألة الجنة والنار. اقتنع بفكرة الغيب لأن كشف المستقبل بالنسبة للإنسان ربما يوقف مسيرته أو يدفعه للانتحار. شك في أن يهنأ الإنسان بالحياة دون درجة كبيرة من الإيمان والثقة بالخالق. لن يستطيع أن يشق طريقه ويكمل مسيرته بتوازن دون أن يطمئن إلى وجود الرحيم أيا كان اسمه، لكنه لابد الخالق القادر على كل شيء. عندما بلغ نقطة مضيئة أشعلها اهتداؤه إلى أن الإيمان السند الأول لنفسية الإنسان القابلة للتحطم، وأن الإيمان هو المادة الكونية التي ترمم القلوب المحطمة، تسللت إلى روحه نسائم السكينة والرضا.. تنفس بعمق وقرر أن يتخلص من بعض أغلال السجن الإجباري قريبًا.

جاءه الخفير يوما يقول:

ـ لقد رأيت كثيرًا من تحف الفيلا المسروقة معروضة في «سوق الجمعة».. كنت وأخي بالأمس هناك لنشتري لابنته ما يلزم جهازها.. فرأيتها.

أصغى مراد وعلَّق بغير اكتراث:

ـ مثلها كثير في كل مكان.

كاد الخفير يقسم، لكنه بكل حماس قال:

ـ لا يا باشا.. الفيل الذي يركبه الطفل والقرد ليس في كل مكان.. النافورة وسمكها المرمر.. سامحني يا باشا.. أنا لا أفهم في هذه التحف، لكني متأكد.

فقال مشيرًا له بالصمت:

ـ شكرًا.

قام فتمشى في الحديقة الفسيحة ليبعد عن ذهنه كلام الرجل الطيب. صحيح أنه يود لو عادت الفيلا كما كانت، لكنه يشك في أن هذه التحف معروضة في الأسواق، كما أنه لا يعرف ما هذه السوق التي حدثه عنها.. ثم يعود ليتبع منطقًا آخر يقضي بأن تكون الفيلا مجرد جدران صماء.. مكان أجرد لا أثر فيه لأي جمال أو تسلية أو سلوان. يجب أن يكون الإهمال والخواء حالها بعد سناء.

في ركن من الحديقة، كان الزير قائمًا في موضعه يشكو الظمأ، وإلى جواره صينية القلل، التي كانت تتأكد من امتلائها بالماء المكلل بالورد والمستكة أو يزينها غصن صغير من نعناع أو ريحان، خطا بضع خطوات حتى الفرن البلدي الذي كانت زوجة الخفير تخبز فيه الفطائر والبتاو، وتسوي فيه أبرمة الأرز المعمر والبطاطس باللحم الضاني، وتشوي البطاطا وأكواز الذرة.. لم تكن سناء تستغني عن الجو الريفي الحميم، وهي صاحبة فكرة إحضار نورج من البلد، وها هو يقبع في الركن الغربي منعزلًا تحت خميلة عنب ظليلة وحوله بضعة كراسي من خشب الشجر دون تهذيب. لمس مراد كل شيء وحدَّق فيه، وسأله عن سناء حتى انهمر وراء الأسئلة نهر الدموع.

ضغط عليه الفضول. قرر أن يقوم بالمغامرة.. لبس بدلة بسيطة دون رابطة عنق ونظارة شمسية سميكة.. مضى مع السائق والخفير إلى السوق.. صدمه مشهد الساحات المفتوحة، لا توجد محلات أو مبانٍ أو شوارع وأرصفة وعلامات إرشادية وجراج للسيارات.. كان كل شيء فوق كل شيء، ومرميًا على الأرض، وتحت الأعين وفي متناول الأيدي. انزعج.. كاد يرجع من حيث جاء، لكنه شعر بقوة تجذبه ليتأكد من أن هذا المكان العجيب يمكن أن يجد فيه تحفه التي يعتز بها ويفرح بها بيته، وقد جمعها من معظم دول العالم، ولم يبخل عليها مهما بلغ ثمنها.

فوجئ بالجماهير الغفيرة، ولم يتحمل فكرة المشي وسط العربات المتلاصقة والزحام الكثيف، وكثير من البسطاء والفقراء، وربما الجوعى واللصوص والدهماء.. الأبدان تحتك وتتخبط بقصد وبغير قصد.

كانت المفاجأة الأولى مزلزلة، فقد عثر عند بائع تماثيل فرعونية، حجر ورخام وعملات ورقية ومعدنية على بعض النياشين والأوسمة الخاصة به، وقد نال ثلاثة منها في مصر وثمانية في الخارج، ووجد سيفًا أهداه إليه الملك فيصل لدى بائع السكاكين والمدي والخناجر، ووجد بروازًا كبيرًا بداخله آية قرآنية محفورة على الخشب ومطعمة بالصَّدف ورقائق الفضة، كان قد أهداها إليه فنان تركي في أنقرة لا يمكن نسيانه بعد أن ساعده في إعادة زوجته المصرية إليه.

عثر على علبة سجائره الفضية المنقوش عليها اسمه، وكانت هدية من السيدة مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ردًا على هديته إليها.. أزعجته كثيرًا النداءات العالية والصادمة من الباعة:

ـ الحقوا.. البضاعة المهربة نبيعها بتراب الفلوس.

ـ الحقوا البضاعة المهربة.. الحقوا الغالي بتراب الفلوس.

ـ بسبعة ونص.. صاحب البضاعة اتجنن.. قالنا بيعوا بسبعة ونص.. الحق بسبعة ونص.. اتجنن خلاص اتجنن.. سبعة ونص.

لم يتصور أن يكون هناك مطرب شعبي يحمل الدف وينقر عليه منشدًا المواويل ومشيدًا بالبضائع التي يبيعها صاحب الشادر. انفتحت شهيته لمواصلة التجول واستعادة ما فقده. تخيل سناء وهي تستقبله بفرح لأنه أعاد إليها ما هامت به. إنه الآن مثل إيزيس الربة التي حاولت منذ آلاف السنين جمع أعضاء زوجها أوزوريس من كل أنحاء مصر. حدثته نفسه:

- وكنت أنت مثل أوزوريس متناثر الأعضاء ولملمك الإيمان وفتح لك باب المصيدة كي تمارس حياتك الطبيعية.

حاول أن ينتزع من شخصيته تاريخه ومنصبه وعائلته ومركزه الاجتماعي، وحساسيته تجاه كل ما هو شعبي.. عليه أن يمضي بحثًا عن ثروته وأن ينهي المهمة بأقل خسائر ممكنة.. لم يستطع أن يمنع نفسه

من تصور إمكانية تعلق بعض البراغيث والقمل في ملابسه، ليس مستبعدًا لأن الحشرات لا تكف عن الطيران والقفز وهي بالتأكيد ذكية.. سوف تشم رائحة عطره الفرنسي، بل ستشم رائحة الصابون الإسباني الذي لا يستعمل غيره.. يجب أن يتكيف لمدة ساعة تظل ذكراها محفورة في تاريخه حتى بعد أن يموت.. الخفير الذي كان يشتري ما يأمره به سعادة السفير ويحمله إلى السيارة ويعود مسرعا، أشار له على الفيل الذي يركبه الطفل والقرد، وكذلك النافورة المرمرية.. دفع المطلوب وحملهما إلى السيارة، وفي غيابه عثر مراد على علبة شيكولاتة مطلية بماء الذهب أهدتها إليه بناظير بوتو عندما كان سفيرا في باكستان، وكان ضيفا عليها في بيتها الذي أنشأته على جبل خارج إسلام أباد.

انتهت المفاجآت بعثوره على طقم الشمعدان الخاص به كاملا مع الساعة، وكان قد ألغى فكرة شرائه فهو مجرد شبيه مكرر، يوجد لدى كل الناس ولم تعد له مكانة مرموقة كما كان، لكنه ألقى نظرة عابرة عليه من الخلف إرضاء للفضول فعثر على حرفي S.M.. سناء ومراد، فأشار إلى الخفير كي يشتريه، وسبقه محاولا الفرار من المكان الذي لا يذكر أنه رأى مثله، مع أنه كان وسناء يخوضان في الكواليس والأحياء الشعبية في البلاد التي عمل بها أو زارها معها سائحين، ودائما ما يتذكر أسواق الهند وبكين وروما ونيجيريا.

شعر بقدر من الرضا لأنه تذكر حب سناء للببغاوات. سأل عن ركنها. قيل له إنها مع العصافير.. متثاقلا مضى إليها وهو يشعر أنه يسد خانة.. وجد أنواعًا عديدة من العصافير.. الكوكتيل الأصفر بعرف للخلف، والكوكتيل الرمادي والفيشر والأسترالي وأنواعًا أخرى كثيرة ألقت في روعه محبتها، منذ سنوات كانت سناء قد اقتنتها، لكنها صدمت بموت الكثير منها فتوقفت عن حبها وتدريجيًا نسيتها.

حاول الباعة إغراءه بشرائها بسبب تأثيرها في البيت والونس الذي تشيعه ولجمالها والتسلي بالنظر إليها.. منحهم جميعا أذنًا غير واعية ولا مبالية، وسأل من جديد عن الببغاوات، قيل له من النادر بيعها في السوق لأنها تحتاج إلى خبرة خاصة، وزبونها في العادة لا يأتي إلى السوق، وإنما يذهب مباشرة إلى محلات وسط البلد في الشواربي وسليمان وقصر العيني.

دنا منه ولد صغير وقال:

ـ يا بيه.. يا بيه.. فيه بغبغان في آخر الشارع ده بعد العصافير.. بس هات جنيه.

قال في سره وهو يمنح الطفل ما طلب مع ابتسامة:

ـ لا بأس من نظرة.

وجده عجوزا ضامرا. رماديًا ورأسه فضي. نحيل شعر الرقبة، مغبر الملامح كأنه خارج لتوه من تحت الأنقاض. سأل البائع عن سنه.. قال:

ـ سنتين.

ـ أظنه أكبر.

ـ لا يا بيه.

ـ ثمنه؟

ـ ده زنجباري يا بيه.. أحسن نوع في البغبغانات.

ـ ثمنه؟

ـ أنا اشتريته من سفير المغرب وكان شاريه من جنوب أفريقيا.. لكن هو أصلا من زنجبار.

كاد يفر من البائع بسبب الثرثرة والكذب.. تذكر أن البائع السنغافوري ذي السِّنَّة الواحدة.. قال: إن أفضل الببغاوات من زنجبار لكنه لا يريد أن يشتري من هذا البائع المستفز.. سناء تدعوه للشراء.

قال بضيق شديد: ما ثمنه؟

ـ علشان خاطرك ميتين.

ـ تفضل.

ـ إيه ده.. خمسين.. لا يمكن.

ـ بلاش.

ـ خليهم سبعين.. إحنا لنا في الزبون نظرة.

ـ امسك.. هات البغبغان.

ـ اتفضل يا بيه.

حمل مراد القفص نادمًا.. لماذا يشتريه؟! يحتاج إلى رعاية وأنا لن أنفعه، وهو عجوز أيضًا وجربان ويبدو غبيًا، ويمكن أن يفقد البصر قريبًا.. شكله غير مشجع بالمرة.. ربما تحبه سناء.

استقل السيارة، وهو يفكر في هذا المكان الغريب، وهذا التجمع الرهيب لكل ما سقط من القاهرة أو انتزع منها.. ومع ذلك فكل شيء في السوق مناسب لبعضه.. البضاعة والناس.

دخل الفيلا تاركًا السائق مع الخفير والخادم ينقلون ما تم شراؤه.. تنفس برضا وقد غلبه إحساس بأن سناء سوف ترتاح قليلًا في قبرها، صحيح أن اللوحات العالمية وأهم التحف لم يستردها، والشرطة وعدته لكن البعض وصل، ودون أن يعي وجد نفسه يقول بصوت مسموع:

ـ ها قد عاد جزء من ممتلكاتك يا..

قبل أن يكمل عبارته.. صرخ الببغاء:

ـ سناء.. سناء.

أفاق مراد وانهمرت دموعه فجأة.. ارتجف.. لم يجد الفرصة كي يدهش مما جرى.. أخرج الببغاء وقبله.. طلب له طعاما عاجلا وعاد فقبله، ثم بكى من جديد وهو يقول:

ـ مِشيت يا صاحبي.. مشيت الغالية..

حبس دموعه وقال:

ـ مبسوطة يا سناء.. مبسوطة يا حبيبة قلب مراد.

عاد الببغاء يصرخ ويقفز:

ـ سناء.. سناء.

(7)

مبكرًا كان قد قرر ألا يراه أحد إلا سبعة ممن يتميزون بالخبرة والإخلاص، اختارهم من بين مائة، تعرَّف عليهم ثم قطع علاقته بهم، لكنهم جميعًا في المؤسسة الكبيرة التي تُطعم على الأقل ألفي أسرة لا يسمعون عن محمد جرجس ولا يعرفونه، ويسمعون عن الخواجة ويعرفه البعض بوصفه كبيرهم وزميلهم في السوق، كما يسمعون عن عبد الراضي وضرغام والعبد ورشدان وغيرهم، ويتصور الكثيرون أن ثمة علاقة بين كل هؤلاء وأنهم بشكل ما وعلى نحو شبه غامض من سلالة محمد جرجس.

فرشة الخواجة مخصصة للمكاوي والشفاطات. المناشير الكهربائية والخلاطات. المسجلات والراديوهات. ماكينات الحلاقة ومواتير مياه الري ومياه الشرب والميكروويف والدفايات.. الغسالات والثلاجات والكتشن ماشين.. السخانات والأباجورات والسيشوار وكل ما تحركه الكهرباء.. ثمة ركن كبير لتجارة الأدوات الصحية الخارجة من العمارات المهدمة تعيدها المهارة جديدة وتلفت الأنظار ويصبح لها سعر.

قبله يقف صديق عزيز يبيع الساعات القديمة والحديثة من كل الماركات.. وبعده يقف صديق آخر يبيع أدوات الطلاء من الصنفرة وسكاكين المعجون والفُرش من كل شكل ولون.

مائتا عربة تجمع الروبابيكيا من القاهرة والجيزة غير ما يجمع من المدن الكبيرة والصغيرة ويلقى في المخازن، حيث يعمل عليها بدأب -ربما بالليل والنهار- خبراء في كل مجال يصلحون المكسور والعطلان.. يشرف عليهم جميعًا أبناؤه وأحفاده الذين آمنوا بفلسفته التي تقوم على وضع المليم على المليم يصبح بنكًا.. وسلم الخواجة السلطة لأولاده تدريجيًا وأصبح فقط شيخ الباعة في سوق الجمعة.

ذلك الجسد الضخم الذي يجمع -ولا يدري أحد كيف- بين العشوائية والنظام.. يشبه كثيرًا أمعاء البشر والحيوانات.. ستة أو سبعة شوارع عريضة يمتد كل منها نحو كيلو متر توازي الشارع الرئيسي الذي يتوسط كوبري السيدة عائشة الواصل بين الفسطاط والمقطم، تقطعها عشرات الشوارع مختلفة الطول والعرض والاستقامة، تتفرع منها أزقة وعطوف.. تدور حول بعض المباني وتلتف حول المقابر وتنحني تحت الكباري والجسور.. البضائع منتشرة في كل مكان.. مفروشة على الأرض وعلى الترابيزات وعلى الحوامل، ومعلقة على الأسوار هناك مساحات تكفي حتى لو في اتساع خرم الإبرة للبيع والشراء، والوقوف والمساومة، وقياس الملابس والأحذية والمعاينة، وشرب الشاي والحشيش والعناق والتحرش، والسرقة والحب والخطف، والتعارف ولقاء الأحباب الذين فرقت بينهم السنون، وهناك فرصة كاملة أو ناقصة، لكنها مرضية للمطاعم الصغيرة

والمشروبات والخياطة وسن السكاكين والإصلاح بكل أنواعه، ومع البضائع يمكن أن تعرض الخراف والماعز والديوك والنعام والبط والإوز والدجاج والأعلاف، وأماكن فسيحة للحمام وسمك الزينة والعصافير والسلاحف والقطط ذات الحيثية والثعابين، ويسمح كذلك للخيول والبغال والحمير أن ترتاح وتأكل وتشرب وتسقط فضلاتها وأن تضاجع بعضها بعضًا، وقد يفعل البشر مثل ذلك أحيانًا وبحسب الظروف والجسارة أو التربية والتعليم.

الشوارع تشبه مواسير هائلة مكونة من ثلاثة أضلاع: جدارين وأرضية، أما الحائط الرابع فمفتوح لرقابة السماء أو عنايتها.. وجبل المقطم من الشرق راكب وحاضن وميَّال وكله حنان، رغم الجهامة.

الحركة في السوق تتدفق بسخاء وحميمية. بعنف ولهفة.. في عجلة أحيانًا أو في حذر.. البعض يرصد في ترقب صابر والبعض ينقض. المساومات سيدة الحوار في البدء والختام.. هي الحبل المشدود بين المشتري والبائع.. صراع وتأهب. الكل يتحرك في دائرة أمل مرنة وتقدر الظروف ولا تسمح بالقفلة.

البائع يبالغ في رفع السعر استعدادًا لمرحلة التنازلات، التي لابد قادمة.. المشتري يبالغ في خفض السعر تحسبًا لبعض الزيادة، التي لن يقبل البائع إلا بالكثير منها.. الخبرات تتناطح، والألفاظ الخشنة قد تساعد في عقد الصفقات، والكذب قاسم مشترك أعظم.. يؤكد البائع أن

هذه السلعة واقفة عليه بأكثر مما يطلب فيها، ثم يحلف بالطلاق من زوجاته الأربع أنه اشتراها بالثمن الذي يطلبه، وأنفق عليها حتى وصلت السوق مثل ثمنها، ومن أجل العيال لن يطول ما أنفق.. لأن التجارة ذوق ومحبة وتعارف، ومع ذلك قد تنجز المهمة كلمات رقيقة ومداعبات، وقد يمتد الخط على استقامته فيتم التعارف، وتتسرب بعض المعلومات، فيكتشف طرفا المقص -البائع والمشتري- أنهما من حي واحد، أو كانا كذلك يومًا، أو يعرفان معًا شخصًا شهيرًا في الحتة: بلطجي أو قهوجي أو خريج سجون، وربما كان الثلاثة في عنبر واحد بالسجن في عام بعينه، ولعلهما كانا ذات سنة أو سنتين معًا بالعراق وسكنا معا حي الأعظمية أو الناصرية أو كانا معا في الرياض أو في بنغازي أو الأردن أو سلطنة عُمان.. وربما كانا بالجيش، وها هما يتذكران معًا الصول مغاوري الذي نكَّل بهما وأذاقهما المُر كاسات حتى يصبحا من حماة الوطن.

ورغم كل الحكايات أو المنازعات فالكل خارج رابح ومبتسم وقد أحسّ أنه في نزهة. وفي العادة يشعر كل مشترٍ أنه لم يكن ليحصل على ما حصل عليه بهذه الحالة الممتازة وبهذا السعر المنخفض من مكان آخر.

كيانات متداخلة وعصيَّة على التوصيف، تتحرك وتتصادم في السوق العجيبة التي يلتقي فيها كل ما خلقه الله، من بشر وحيوانات وكائنات برية وبحرية وجوية مع كل ما خلقه الإنسان من بضائع، يستحيل

حصرها، ومع ذلك هناك تناغم وانسجام مثل لحم البهيمة. الدهون معشقة في اللحم الأحمر، والاثنان يحتويان العظم وتتعلق بها الأحشاء من القلب والكبدة والكلاوي والكرشة والطحال.

الكل يتدفق عبر الشوارع والأزقة المكدسة بأغلى المعروضات وأحقرها.. وليس كل من يجوس خلال السوق الشعبية من الفقراء والبسطاء.. إنهم من طبقات وشرائح مختلفة، تتنوع بينهم الاهتمامات والهوايات والمصالح والحاجات.. قد يكون بينهم من جاء بحثًا عن مسمار صغير لطلمبة مياه يتوقف عليه عملها في ري مئات الأفدنة، وقد يأتي إليه من يطلب جهازًا كاملًا لابنته المخطوبة التي آن أن تدخل بيتها الجديد كعروس، وفي السوق كل ما تحتاجه حتى ما يلزم لزوجها ليتمكن من تحقيق فخر رجولته، وقد تأتي سيدة لتبحث عن مكحلة من مكاحل المماليك أو هون نحاس، وقد يأتي الغاوي علَّه يجد ذكر حمام نمساويًا مزينًا بتاج من الريش، أو بحثًا عن سمكة زينة دبل آيز، وعندئذ يشعر أنه امتلك الدنيا. والرغبات بالملايين وهي أكثر بكثير من أصحابها.

كل السوق أحب الخواجة لأنه رجل طيب ومستعد دائمًا لمساعدة من يحتاج، وفي الوقت ذاته قليل الكلام. كثير الفعل.. لا يؤذى أحدًا ودائم الابتسام.. يلجأ إليه أهل السوق كثيرًا للتوفيق بين المتنازعين، وكم أرسل المعونات في السر لبيوت الباعة الذين قد يمرضون أو

تقبض عليهم الشرطة لأي سبب، وللأسر التي يموت أحد من ذويها أو من يسرق ماله أو من تفسد بضاعته.

(8)

مثلث جغرافي لا يكاد يعرف غيره، البيت والمقابر (بداخلها المسجد) وسوق الجمعة.. ثلاثة أماكن -مرتبة حسب الأهمية- يتدله في حبها.. ليست مجرد أماكن وإنما معالم في جسده وروحه، وقلبه وعقله، كل منها له أدواته ولغته وناسه وأحبابه، وهو فيها جميعًا صاحب كلمة وهيبة.. له أيضًا حب راسخ وإعجاب.

الأماكن الثلاثة لا يحتاج للحركة بينها إلى وسيلة انتقال، رِجلاه تكفياه، ولا يحتاج ليؤدي دوره، ويلتقط لقمة عيشه إلى نظر، وربما لذلك حرمه الله منه قبل أن يولد، ومتَّعه بعقل وإحساس ولسان.. تعود الرجل أن يحمد الله آناء الليل وأطراف النهار على النعم التي لا يحصرها حصر. بكت أمه شهرًا كاملًا عندما انتظرت أن يفتح عينيه بعد ولادته، فلم تُفتح، وعندما -بعد شهور- انفرجت الجفون نصف انفراجة بدت العين بلا إنسان.. مجرد مساحة رمادية تتحرك فيها سحابات غامقة كخرقة للمسح طال بها العهد، لكنه يسمع دبة النملة وتثاؤب الشياطين وحوار الملائكة، وكم أمسك بعضها متلبسة بتسجيل بعض أفعاله -إبان سنين الصبا- التي قد لا ترضى عنها السماوات السبع، وهو لا يجد غضاضة في الاعتراف -في ساعات الصفا والسمر- بأنه بدأ طريق الخطيئة مبكرًا.

سمَّاه أبوه رضوان العبد من الشهايبة السوهاجية «زاهر»، ولما جاء إلى القاهرة كان من حظه أن يقيم

عند أخيه مهران في حي السيدة عائشة، وأقام سنة على باب مسجدها يجمع الصدقات ويقرأ القرآن، وأثارت قراءته شغف الزوار والعابرين حتى طلب بعض مشايخ المسجد أن يقرأ لهم. قاوم ذلك آخرون من أصحاب الكلمة المسموعة وسمحوا له فقط أن يُحَفِّظ القرآن للصبية ومن يرد من الشباب فرحب.. كان يحلم بالجنة مادام لا يكاد يجد فتات العيش في الدنيا، والجنة كما تَعلَّم وترسَّخ في ذهنه أفضل السبل إليها القرآن.

اعتاد أن يبدأ حديثه مع طلاب الحفظ بالآية الكريمة:

﴿ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ﴾.

فسر الآية عدة مرات مؤكدًا أن القرآن موعظة ومرشد، شفاء وهدى ورحمة، وهو بفضل الله كنزٌ يتفوق على كل ما يجمع البشر من الثروات خاصة إذا عملوا بما فيه.

ظهر مجددًا من حاربه، ودفع بغيره إلى مكانه، ففكر في أن يبيع الكتب الدينية، واتفق مع مكتبة قريبة أن تزوده بالكتب التي كانت سوقها غير رائجة، لكنه رضي بالقليل، ورصَّ البضاعة حتى بارت ولم يجد من بيعها ما يسد رمقه.. لحق به فضل خالقه فدعاه بعض الموسرين إلى قراءة القرآن في بيوتهم لقاء مرتب شهري، فقبل وقرأ في السرادقات والمناسبات.

لا يدري على وجه التحديد السبب في أن بعض البيوت أغلقت في وجهه أبوابها.. أصحابها يغيبون عن حرماتهم كثيرا، فُوجئ بهم يوقفون زيارة القدم الغريبة حتى لو كان مسعاها تلاوة كتاب الله ونشر روائح البركة وطرد الشياطين، وقد نقل أحدهم إلى الآخرين مخاوفه التي تتلخص في قوله:

- الفأر يلعب في عبي من كثرة قراءة الحوادث في الصحف، وأخشى أن نكون بقارئ القرآن الأعمى نستبدل شياطين بشياطين والله أعلم. حَرَّص ولا تخَوِّن.

لم يتنبه زاهر إلى أن من الأسباب حلاوة لسانه التي أعجبت النساء، فرحبن به وأكرمنه، وفي المقابل توجس الرجال، وتوقعوا احتمالية أن ينبت في الأرض الخصبة بعض ما يهدد سلامهم الاجتماعي.

سعى فاعل خير -بعد أن طرده صاحب البيت- كي يسكن في غرفة متواضعة في مدخل مقبرة قريبا من شارع السوق الرئيسي، وتولى عنه دفع الأجرة البسيطة، وحكى الرجل للخواجة ظروف زاهر فكلف من يجهز له طاولة يستخدمها في بيع أشرطة القرآن والتواشيح والسير الشعبية والإنشاد الديني وقد زوده بها مع جهاز تسجيل صغير، وما لبثت الأمور أن سارت سيرا حسنا، فالإقبال على الأشرطة أفضل من الإقبال على الكتب بفضل الجهل وإمكانية الاستماع مع عدم الانشغال بأي عمل. كان مناسبا ومرضيا للشيخ زاهر أن يستمع

للأشرطة طيلة النهار في الوقت الذي تجتذب فيه العابرين دون دعاية.

لاحظ التجار كبارًا وصغارًا أن زاهر يكاد يرى فهو يسمع دبة النملة ويعرف الباعة من أصواتهم، وكثيرا ما أمسك بسارقي الأشرطة، كما أنه يُحسن عد النقود ويعرف بأصابعه الأوراق النقدية مع اختلاف قيمتها وحجمها وطبيعة ورقها لذلك لم يكن يغضب لأنه في السوق يسمونه «المفتح».. يقولون: المفتح كان هنا من شوية.. المفتح جاء.. المفتح راح.

فوجئ بضابط الشرطة يسأله:

ـ قوللي يا مفتح.. تعرف مُحسنة؟

رفع وجهه إلى السماء نصف رفعة، كأنه يتأهب لاستقبال المدد ثم ابتسم، ولا يدرك من لا يعرفه إذا كانت الابتسامة سخرية، أم إنها دلالة على ثقته بما لديه من معلومات.. قال وهو يفرك كفيه الغليظتين:

ـ جارتي.

ـ عرفت إنها اختفت؟

ـ لم تختف.. ذهبت لتزور أهلها في شبين.

ـ إيه رأيك؟

ـ في خلق السماوات والأرض؟!

تنهد الضابط، ثم قال:

ـ في سبب اختفائها؟

ـ تعددت الأسباب والاختفاء واحد.

ـ ركز يا مفتح!

ـ أكتر من كده.

ـ عندك سبب محدد؟

ابتسم المفتح من جديد، وسأل الضابط:

ـ هل تعرف سبب تسمية الضابط بهذا الاسم؟

ـ نعم وحياة أمك!!

ـ أجبني إذا كنت تعرف ولا تأخذك العزة بالإثم.

ـ حا تعمل مفتح عليّ يا أعمى.

اسوَّد وجه المفتح.

ـ إذن أنت كالعادة لا تدري.. أقول لك وأجري على الله.. الضابط ليس من يضبط السارق أو الهارب، الضابط من يضبط نفسه.. وواضح إنك لست بضابط.

احمر وجه الضابط، ونفرت عروقه، وجمع أصابع يده في قبضة غاضبة، وهمَّ بأن يدفعها لوجه المفتح، الذي قال له:

ـ هيا.. اضرب!

فوجئ الضابط واضطرب وأدرك أنه وقع في شَرَك مع هذا الرجل الداهية، فاستدار على عجل وتبعه فريق الشرطة والمخبرين.

في اليوم التالي، جاء ضابط آخر يطلب منه الحضور على عجل للتعرف على جثة امرأة مشوهة الوجه مقطوعة الذراع الأيمن. مبقورة البطن ومجهولة الهوية إذ لا تحمل أوراقًا، ربما كانت جثة محسنة.. اضطرب المفتح وارتعد فقد ثار بركان بأعماقه.. لم يتصور الخبر، لكنه تماسك وقال:

ـ يا مندوب الحكومة.. كيف أتعرف عليها والمفتحين بحق وحقيقي لم يستطيعوا التعرف عليها؟!

ـ يمكن عندك الفايدة.

ـ إذا كنت أنا مش شايفك وأنت زى فلقة القمر.

ـ تبقى شايفني.

ـ إنت صدّقت يا حضرة الأنباشي.

ـ ضابط يا لوح.. غور.. عنده حق من عَماك.

لم يشعر بأنه أعمى إلا هذه الأيام، ولم يتيقن أن الدنيا معتمة إلا هذه الأيام، بل لم يحس أبدا أن الحياة مقبلة على أيام سوداء وظالمة إلا هذه الأيام، ومع ذلك فهو على ثقة أن الجثة ليست لمحسنة.. إحساسه لم يخنه أبدا.. قالت من قبل إن أهلها يقاطعونها ولم تشرح الأسباب.. لم يدفعه الفضول لحفر البئر.

تنهد بعمق واحتضن بكل جوارحه وأعصابه سيرة محسنة التي ترحَّم كثيرًا على من سمَّاها، وكأنه كان يعلم -وهي لا تزال قطعة لحم في حجم قطة- إنها ستكون فعلًا مُحسنة، تطبق ببساطة وتدفق كل دلالات الكلمة.

تذكر حنانها وأكلها اللذيذ وسؤالها الدائم عنه.. وحرك رأسه يمينًا ويسارًا، كأنه في حلقة ذكر.. لا تنسوا الفضل بينكم.. لأول مرة دمعت عيناه التي لم تدمع إلا على أمه فقط من دون خلق الله، وكانت حضنه الدائم، وسنده وحِماه، وهي التي شحنت قلبه بالجسارة ودفست فيه

جمرة نار لا تطفئها المياه.. لكن المياه فيما يبدو -أخيرًا- تسربت.. سبحانه علام الغيوب.

مرَّت على طاولته مرة وقالت له: عندي إحساس إنك عالم وواصل.

أسرع يقول لها: صوتك مش غريب.

قالت: أنا محسنة البياعة.. عارف توحة؟

رد وهو يرفع وجهه صوب السماء بميل واضح ليسمع ويرى:

- حد ما يعرفهاش.

- أنا جنبها.

سألها: أنا لست بعالم.. أنا شخص عاجز وعلى باب الله.

- الناس حا تكذب؟

- وما أوتيت من العلم إلا قليلًا.. طلباتك.

- أنا لا أنام يا شيخ وعايزة حجاب أو أي وصفة تحميني من الكوابيس.

- اقرئي القرآن.. هو الشفاء من كل سقم.

- لا أقرأ.

- اسمعيه أكبر وقت ممكن.

- متأكد؟

- من يقول لك غير هذا جاهل ومدّعي وسوف تكونين في أحسن حال بمشيئة الرحمن.

- ربنا يطمنك.

مد يده لها بشريط وقال:

- خذي هذا الشريط مني هدية وبعد أسبوع ستلحظين النتيجة.

- شكرًا.

- الدواء دائمًا عند من خلق الداء.

- ربنا يخليك ويزيدك من العلم.

بعد أسبوع زارته وأنبأته أنها أفضل من ذي قبل، ثم قالت له:

- سمعت أنك تبحث عن غرفة للسكن.

- نعم. حارس المقبرة مزعج ولعَّان.

- عندي غرفة خالية.

- بارك الله فيك.. أنقذتني من الشخص القبيح.

عندما سكن عندها.. دخلت عليه وسألته:

ـ إزاي الحال؟!

ـ في نعمة ما لها نظير.

ـ أمال فين دولاب هدومك؟

ـ لا لزوم له.. توب عليّ وتوب على الوتد.

خرجت فاشترت له جلبابا وكوفية، وشبشبًا من جلد متين تتحرك فيه براحتها قدماه الكبيرتان. ابتسمت أعماقه أولًا ثم ابتسم جسده وانتشرت ابتسامة الرضا على شفتيه.

عندما أحضرت له بطة محمرة هجم عليها وهو يقول:

ـ ونزعنا ما في صدورهم من غل.

ولما قضى على معظمها. توقف وحمد الله.

قالت:

ـ كُل كمان.

ـ شبعت.. يجعل بيت المحسنين عمار.

ـ خللي بالك.. المثل يقول: الأكل على قد المحبة.

ـ إذا كان على محبتي يبقى لازم آكل كل ما على الأرض.

ـ يعني مبسوط؟

ـ لم أكن أتصور إن ربنا راضي عني لهذه الدرجة.

بعد يومين حملت إليه الماء الساخن وأقسمت أن تحممه بالليفة وتدعك له كعبيه بالحجر، ثم حلقت ذقنه وعطرته، وقصَّت أظافره.. شحذ فكره وإحساسه ومضى بكل خياله يحاول تصور الأحوال في الجنة بعد يوم الحساب، وانتهى إلى أنها لن تختلف كثيرًا عما هو فيه، فبعض ما يستمتع به على يدي محسنة لم يخطر على قلب بعض البشر، وإذا كانت الجنة كذلك فعلينا أن نبذل الجهد الخرافي لبلوغها، واستقر في وعيه بشكل غامض، أن الله ربما يذيقه في الدنيا بعض ما في الجنة ليدرك روعتها فيطمع أن يعيش في الجنة مخلدا ويلتزم الأسباب.

شعر أن جسمه بعد عمليات التنظيف والتجميل يكاد يطير، وخامره إحساس أنه جميل.. ثم قال محدثا نفسه التي يحب الحديث إليها:

ـ يا لروعة الدنيا إذا كانت فيها امرأة مخلصة تحبك، ويا لها من صحراء لعينة إذا خلت منها.

مُحسنة جارته في السوق والبيت.. الباب أمام الباب. قلبها دائمًا على قلبه. سمْعها دائمًا معه، وعينها عليه. قبل أن يفكر في شيء يتمناه يكون عنده.. لا يصدق هذا القدر من الخير الذي يتفجر منها. تنهد عميقًا لعل الأسى ينصرف ونور الحقيقة يشرق على الدنيا وعليه.

كان يجلس أمام بضاعته بعد فرشتها بحوالي عشر فرشات إلى جانب الخواجة أقدم بائعي السوق.. تحايلت على جارها بائع لوازم النجارة من الشواكيش والمناشير والفارة والكماشة حتى يتبادل مع المفتح مكانيهما ويأتي ليفرش جوارها حيث تبيع لوازم الخياطة.. الإبر وبكر الخيط والترتر والدبابيس والكباسين وخرج النجف والكستبان والدانتيلا والركامة والأزرار.. كما تبيع المقصات والقصافات والفيونكات.

فوجئ بها تقول له، وهو جالس يقرأ القرآن أمام طاولته وعليها الأشرطة:

ـ يللا بينا من هنا.

ـ إيه اللي جرى؟!

لم ترد عليه، مضت يدها في عجلة تنقل الأشرطة وجهاز التسجيل وتحطها في كيسين كبيرين من الخيش. ندهت على الولد عزمي ابن سعد الكيَّال، حمَّلته الطاولة وسبقته بالكيسين: واحد على رأسها، والثاني ضمت عليه ذراعها، وانطلقت تشق الجموع بجسارة ولسانها جاهز للسب إذا اقتضى الأمر، وتكتفي مؤقتًا بقولها:

- وسَّع طريق.. وسَّع.

اعتمدت يسراه على عكازه، ومضت يمناه الطليقة تساعده على تفادي الزبائن الذين هم في نظره عميان إلا عما يودون شراءه.. يسيرون بربع انتباه.

كان المفتح أنصح ولد في كتاب الشيخ برهان.. يقرأ الشيخ السورة مرة واحدة. يحفظها المفتح في لحظات ويتلوها بالتجويد، كأنه منذ سنة لا عمل له إلا قراءتها، وحشو رأسه بها.. أشاع عنه بعض الأولاد -وقد تكون رواية صحيحة -أنه كان يتمتم قبل أن يبدأ الشيخ القراءة.

سئُقرئك فلا تنسى.

يكررها عدة مرات دون أن يدرك بالطبع معانيها إلا عندما شب عقله وامتلك القدرة على التأمل والتفكير.

تعقبته الآذان وهو يتلو القرآن في البيوت وعلى المقابر، وفي ذكرى الأربعين والخمسان، والجُمَع والعيدين، وفي معظم شهور رجب وشعبان ورمضان.. كان ذا صوت رخيم يجيد التنغيم.. يصعد ويهبط بالنبرات في اقتدار ويبتكر في تقطيع الكلمات، وفي الضغط على بعضها لفتًا للعقول والأفهام، ويبدع في التواشيح والتسابيح ورفع الأدعية والأذان.. وهكذا أصبح مرتبطا بالمقابر دون الاقتراب من مسجد السيدة عائشة، إذ حاربوا اعتلاءه المنبر من امتلأت نفوسهم بالحقد عليه إدراكًا لقدرته الوحشية المقتحمة.

كان أخوه مهران قد نزل مصر منذ عشرين عامًا بحثًا عن رزق أكبر بدلًا من الفقر المدقع في قريتهم التي نسيتها الأيام.. ترك الأسرة الصغيرة تمضغ نبات الأرض الجافة، وبين ليلة وضحاها أصبح تاجر حبوب، ولما مات الوالد والوالدة بعده، وتزوجت الأخت، لم يكن بدٌ من انتقال الشيخ «زاهر» للإقامة مع أخيه، ولمَّا انصرم ما يزيد على العام ونصف العام وقعت الواقعة، ولطمت الصدمة الشيخ حين علم أن طعنة نجلاء قضت على حياة الأخ الذي اكتشف زاهر أنه كان يعيش على عمليات متواصلة من النصب والسرقة والكذب، ومنها أنه باع بيتهم بالقرية دون علمه كما باع البقر والحمار والمحراث والنخل، وأزيح الستار عن الخراب في القرية والقاهرة معا.

انتقل إلى المقبرة حتى قفزت إلى عقل محسنة فكرة، تتقرب بها إلى الله بإكرام عبده التقي الموشك على التشرد.

سحبت ولدها وذهبت إليه:

قالت لولدها: سلم على سيدنا الشيخ.

مد الولد ذو السنين الخمس يده الصغيرة وهو متوجس، فنامت في كف الشيخ التي في حجم رأسه.. قال:

- يا بشرى.. هذا غلام.

سحبه إليه وقبله.. أجلسه في حجره والولد يقاوم رعبًا يستولي عليه من حجمه البري وصوته الغليظ..

طلبت إليه أن يتفضل مشكورًا بالانتقال إلى بيتها فلديها غرفة خالية، واعتذرت لأنها بالدور الثاني وليس الأول.

قال الشيخ: من فرَّج عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

قالت: حا ابعتلك شَابين ينقلوا حاجتك بعد صلاة الجمعة.

قال في حسم: لا أتحرك إلا بعد الاتفاق على الأجرة.

قالت في رقة: ما بين الخيرين حساب.

قال: أبدًا.

أذعنت وقد أضمرت خيرًا: خلاص يا بركة.. ماشي كلامك.

علم أن الغلام اسمه جمعة، ووالده خميس، وقد رحل، تحدثت عنه بالإعجاب محسنة.. لم يكن في مثله رجل، وقد أقسمت ألا تتزوج من بعده مهما شبع موتًا فلن تمحو السنون ذكراه.

رصَّت كل شيء على الطاولة في الموضع الجديد قريبًا من توحة وشطة وآدم وبشاير وجهزت كرسيًّا للشيخ.. طلبت له من سيدة العمشة واحد ينسون ولها واحد قرفة، رتبت الأشرطة ووضعت لافتة بثمن كل شريط، حتى لا يسأله أحد أو يثرثر.. من أراد شيئًا دفع الثمن في صمت ومضى مصحوبًا بالسلامة.

تنهدت راضيةً، فقد ألهمها الله أن تقوم بالواجب إزاء هذا الرجل «الوحداني» الذي ابتلته الأيام بالمصائب، وسوف تحصل بوجوده البركة لعلها تحميها وهي

تستشعر أنها تمشي على الشوك والخطر.. فأر كبير دائم التجوال بأعماقها يثير القلق، ربما بسبب القطيعة بينها وبين إخوتها الذين رفضوا زوجها، وعداوتها لزوجة أبيها «مفراك الشر» وغيرتهم جميعًا من دعم أبيها لها قبل وفاته.. وفوق ذلك ألسنة كثيرة توغر الصدور ضدها فهناك من يكرهون بالمجان.

الولد جمعة إلى جوارها بالسوق مشغول بمص القصب الذي كسَّرته أمه عُقلًا صغيرة.. يمتص الرحيق ويدخل معه بأعصابه، ويمر به على شدقه وحلقه حتى يسلمه إلى البلعوم ومنه إلى بطنه، لتستمتع بلذة حلاوته السائلة ويواصل الشفط من العقلة.. قضمة بعد قضمة، يشد السائل الحلو كما يشد مدمنو الشيشة أنفاسها، ويروون صدورهم بالهباب المعشوق.

كلما رأته أمه تذكرت أباه الذي كان يشفط دخان الشيشة شفطًا ويود لو أدخل الخرطوم بالكامل إلى رئتيه حتى قضى عليه عشقه الأسود.

عندما نزل زاهر ببيت محسنة فوجئ بأن الفئران ترعى فيه بحرية كأنها المُلَّاك، وليس هو أكثر من ضيف عليها، وبالطبع غير مرغوب فيه.. بالليل لا تكف عن الحركة، ولا تترك موضعًا إلا اقتحمته وفتشت فيه بحثًا عما يناسبها من طعام، حتى عِمَّته لم تسلم من العبث وحملات التنقيب، كما أنها عبثت بوجهه وتفحصت معالمه وهو نائم، ونفذت داخل الجلباب، وكم من مرة استيقظ على قرضها سرواله الطويل الذي تشبه كل

فردة منه شوالا! كم من مرة سقطت برطمانات وعلب من فوق رف عالٍ معلق على الحائط! وقد يصحو على جرجرتها مركوبه وهو في حجم بطة، أو في حجم ذكر أرنب كبير لا يكف عن مطاردة الإناث.

عانى منها إذن كل المعاناة، ولم يفلح في إصابتها إلا واحدا أمسكه وقذفه بشدة في الحائط، وعثرت عليه محسنة في الصباح محطمًا وغارقًا في إبريق الماء الكبير، وأكمل كل منهما القصة للآخر.

لا يعرف بالضبط منافذها ولعل لها في الشقة جحورًا. ولما خرَّبت له نومه، حكى للسيدة صاحبة البيت فأكدت له أنه لن يراها بعد الليلة، وأرسلت من يشتري لها عدة كيلو جرامات من الأسمنت والرمل، ومضت تسد كل جحر، وقبل أن تغادر.. قالت:

ـ غداك النهارده علينا يا عم الشيخ.

ـ يا خبر أبيض ليه التعب يا كريمة.

ـ اسمي محسنة.

ـ لكن بفعلك كريمة.

أقسم لها أنه رآها في الحلم قبل أن ينذره صاحب البيت بالطرد. رأى البيت ينهار على السكان وامرأة جميلة تجره من تحت الأنقاض.. سألته عن الأحلام كيف يراها؟ فأكد أنه يراها بمنتهى الوضوح، وأنها في الأغلب ملونة.. اضطربت عندما قال لها:

- أدعو الله أن أرى السيدة الجميلة التي أنقذتني في الحلم والحقيقة.

بعد أيام فوجئ بالفئران تعود.. خرج بنفسه فاشترى مصيدة، وعلَّق بلسانها قطعة جبن، وقبل منتصف الليل وفي عز العراك الجسدي انطلق باب المصيدة بعنف لينغلق على الفأر وتبدأ جهوده المحمومة للخروج، كما كانت هناك جهود محمومة لفأر آخر يحاول الدخول في مصيدة أخرى.

برقت الفكرة في رأسه.. أن يتاجر في المصايد منطلقا من فكرة درء المصائب مقدم على جلب المنافع، فماذا لو يتخصص فيها دون غيرها؟ لقد جربها ولن ينافس أحدًا.. لكم اشتكى من مساحات الوقت الفارغة.. سأل محسنة. أكدت له أنها لم تر أحدًا يبيع المصايد. شجعته حتى بدأ مشروعه الصغير، وفي اليوم الأول باع عشر مصايد، وفي اليوم الثاني كذلك، واستمر الإقبال عليه.

سأله مداعبًا الولد عزمي ابن سعد الكيال:

ـ افرض حد سهَّاك وسرق مصيدة ومادفعش.

قال على الفور:

ـ يبقى دخل المصيدة.

لم يبد على عزمي أنه فهم إلا بعد أن أفهمه أبوه.

مصيدة بسيطة عبارة عن صندوق من الأسلاك على قاعدة من الصفيح، وباب مشدود بـ«ياي» إلى لسان تُعلَّق فيه من الداخل قطعة الجبن أو الخيار أو الطماطم، ومن أعلى يتعلق اللسان بسن صغير في مقبض الباب تعليقة مرهفة جدا، يكفي الهواء إذا لمس

اللسان لينطلق المقبض وينغلق الباب. قال الشيخ زاهر في نفسه:

ـ هكذا الحياة.. البيت وصاحبته.. الباعة والسوق.. المقابر والموتى.. الآباء والأبناء.. الزوج والزوجة.. العربة والسائق.. الحياة كلها مصايد.. والله فعَّال لما يريد وهو أحكم الحاكمين.

كان قد فكَّر في فتح كُتَّاب لتعليم الأولاد القرآن، لكن فكرة المصايد غلبت والفضل للفئران التي ألهمته الحل حتى يتحرك ويرى الناس ويروه، ويسمع الأخبار ويتعرف على الحوادث والحكايات.. ليس من المقبول أن تكون حياته جميعها في المقابر، أما البيع في السوق فسوف يسمح له أن يكون مع محسنة دائما.. فهي دليله.. يخرجان معا ويرجعان..

شكرا لك يا رب على هذه البوابة الضخمة التي انفتحت وما أجمل الأمل!

(9)

تابعتُ الزبائن الذين يُقلِّبون في الملاعق والسكاكين والأجهزة القديمة والملابس والتوابل وأدوات الزينة والملاءات والنجف والأحذية والنظارات حتى بلغت منطقة فسيحة لكنها محتشدة بالبشر. أسلمتُ نفسي لأمواجهم التي تدفعني من الخلف بإصرار ناعم.. كم كبير من أحواض سمك الزينة.. الأسماك لا تكف عن الركض والحركة والصعود والهبوط والمروق بين غيرها في مرونة وبراءة.. العيون أغلبها جاحظة.. حدقاتها تدور وتبحث وتحدق والأفواه تلتقط الطعام الذي لا أكاد أراه.. حديقة رائعة من الأسماك مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع والألوان.. الألوان بالذات معرض فاتن للتناسق والتناغم والتصميم بما يؤكد أن الأسماك المصدر الأول لمصممي الأزياء على الأقل فيما يختص باختيار الألوان وهارمونية نغماتها.

عدد كبير، ربما بالمئات يلتف حول الأحواض ويحدق في الأسماك.. لا يكتفي بالمشاهدة.. أغلبهم يسأل ويختار ويشتري.. لم أكن أتصور أن هناك من يهتم بهذه الأسماك إلا علية القوم والأثرياء.. لكن شبابًا كثيرين يشيرون إلى أسماك معينة ويشترون.. يسرع الباعة بتعبئتها في أكياس بلاستيك شفافة وملئها إلى المنتصف بماء دافئ.. حدثوني عن السمك وجماله وأنواعه وتكاثره.. كانوا يتحدثون بشغف وسعادة كأن السمك أصل الكون ومتعته.. الوجوه مشرقة، والعيون

تلمع.. الكلمات تتزاحم وتتقافز فوق الألسنة بما يدل على أنها بالنسبة لهم.. أعز الهوايات.

قال لي أحدهم وقد لمس رغبتي في السؤال:

ـ هذه السمكة إنجل وتلك البرتقالية فانتيل، والصغيرة السوداء كِوي.

أسأله عن سمكة غريبة لها كيسان كبيران صفراوان كبالونتين على جانبي عينيها.

ـ إنها دابل أيز.

أسأل عن طعام الأسماك وحياتها في الماء.. يتدفق الجميع ويتنافسون في الرد موضحين أنها تجري في الأحواض وتلعب وتحب وتمارس الجنس وتحمل وتفقس البيض.. الأحواض لها مواتير ومواسير بالكهرباء لتوفير الأكسجين وتجديد المياه، ولتجعلها في درجة حرارة معينة صالحة لحياة الأسماك. الكائنات الجميلة تجري وترقص وتتدلل بذيولها وترسم على الماء لوحة من الإبداع الرباني الآسر.

معلومات كثيرة تتوالى عن الغذاء والجماع والقبل وتجهيز المياه والطباع والعادات والإحساس والنظافة.. قال الكثيرون إنهم يجلسون أمام الأحواض بالساعات دون ملل.. عالم جميل يصرفنا عن عالم آخر يمتلئ بالقبح والضجيج.. عالم مريح للنفس. يغسل الهموم. يجعلك متفائلًا وهادئًا ومستعدًا للتسامح والتماس الأعذار لمن يخطئون.. إنه العالم الذي يدفع للتأمل ويقربك من الرب ويدربك على الحب.

ابتسمت، فقد كان كلامًا رومانسيًا بشكل مبالغ فيه وربما غير حقيقي.. لكن الذي قاله هم الزبائن وليس الباعة.. عندما تحولت لأزن ما يجري وقعت عيني عليها.. تسمرت.. فتاة بسيطة.. عيناها جميلتان واسعتان وخصلة من شعرها تتدلى على جبينها.. ملامحها دقيقة ومنمنمة غير أن شفتيها دسمتان حمراوان لم يخلقا إلا للقبل الطويلة العميقة، حيث ينهل العاشق من الرحيق المعتق ويسقي عمره وحياته وقلبه المتعطش.. تسمرت. وزعت نظراتي على الزبائن فقد يكون منهم من لاحظ جمالها فتمهل أمامه لحظات. لم أعثر على من ينظر إليها إطلاقًا. كانت كل العيون على الأسماك والنظرات ترصد الحركة والانتباه كله للمعلومات ومتابعة يديها وهي تحرك السمكة تلو الأخرى وتنقلها إلى بحرها الصغير الجديد في الكيس البلاستيك الذي تمسكه بطريقة جديدة تمامًا.

تقف خلف عمارة صغيرة من أحواض السمك.. انهمكت في استخراج سمكات صغيرة صفراء من أحد الأحواض بشبكة في حجم مغرفة.. تضع السمك في كيس شفاف من البلاستيك به ماء دافئ.. صدر ممتلئ وخصر نحيل تحته ردفان مستديران وراسخان وشعر كثيف وطويل يتدلى حتى آخر سلسلة ظهرها، تتفجر بالصحة والشباب.. ترد على كل من يسأل بابتسامة.. لا تضيق بكثرة الأسئلة.. ثقافة سمكية متدفقة وبساطة مع خفة وحركة.. لمحتني مع أني كنت أقف خارج مدار

زبائنها وأحواضها.. أمسكتني متلبسًا بنظراتي المتفحصة.. تزن وتتأمل وتدهش.. أدركت أنني لا أريد سمكًا وليس لدي حوض.

لا أظن أنها وحدها بين كل هذه الأحواض وفي مواجهة الزبائن.. حضر في الحال شخص يشبهها تماما لولا الشارب والطول والشعر المفلفل حاملًا قبابًا خشبية (فرونتورا) تماثل الواجهات العليا للمعابد الإغريقية والرومانية. رأيت مثلها فوق بعض الأحواض.. أضافت جمالًا للحوض الزجاجي.. وضع حمله على جنب ووقف أمام عمارة أخرى من أحواض السمك.. ظهره في ظهر الفتاة تاركًا ممرًا ضيقًا للمشترين.. لعله أخوها.. تحدث إلى عجوز يجذب الأنفاس من الشيشة.. هو لا شك أبوهما.

هذا هو اللون الذي أبحث عنه من الزوجات. هذا الجسم وهذه السن وهذا الوجه وهذا الذكاء وهذه البساطة وهذا الجمال.. كانت السابقات من عائلات معروفة وثرية، حتى من خطبتها وتخلصت مني قبل الزواج كن جميعًا يحملن في أعماق قلوبهن شعورا بعدم الرضا الكامل عن الزيجة كأني عار.. قالت التي خطبتها ولم أدخل بها بوضوح سافل:

-العزوبية ولا الجوازة العرة.

كدت أخنقها إذ أنا من أنا.. أستاذ جامعة يجلس أمامي الآلاف من الطلاب، منهم عشرات الطالبات يتمنين فقط أن ألقي عليهن نظرة. من السهل جدًا أن

يصيب الغرور النساء. وكثيرًا ما تتسبب في ذلك معاكسات الشباب الطائش في الشارع.. معاكسات لا غرض لها غير التسلية والتخلص من الملل، فتتصور بعض البنات أنهن حُزن الجمال ومن حقهن أن يتدللن.

قررت أن أتزوجها.. قطة أليفة لذيذة وناعمة.. لن أشبع من التهامها ولن تكون مزعجة. لطمني خاطر أن الشاب ربما كان زوجها.. دنوت منها محاولًا البحث عن دبلة في أحد أصابعها.. لم أجد شيئًا.. لمحتني من جديد.. الذكية بنت الذكية رمقتني بنظرة كأنها تسألني: ما حكايتك؟!

ظللت واقفًا أتظاهر بالتحديق في السمك حتى خفَّت الرِّجْل قليلًا واختفى أخوها.. دنوت فجأة، وقلت لها:

- أنا أستاذ جامعة وإنتِ عجبتيني.

ظلت مشغولة بالسمك والزبائن كأنها لا تراني ولم تسمعني.. لن أتركها. كبرياء جميلة وثقة. لم تهتم بالمظاهر. لم تهتز لما قلته. كنت أحسب أنها ستتهاوى من طولها أو تسقط الشبكة من يدها.. نظرت إليّ بغير رضا وقاستني من أعلى لأسفل مرتين، ثم عادت لخدمة عشاق السمك. كان المفروض أن تهتم بأية درجة لكنها بدت غير معنية، كأني مجرد هاموشة عبرت الفضاء دون أن يراها أحد، وربما لم يكن لها وجود ولو حتى بالتنفس.

سوف أدفعها الآن للركوع تحت قدميّ. دنوت وابتسمت وهمست كاذبا لأقيس عمق النهر:

- راقبتك عدة مرات وقررت أن أطلب يدك.

أعرف أني أحمق.. ليس كل الوقت بالطبع.. وما كان يجب أن أتسرع بالعرض لأن التسرع يكشف التفاهة والشك في المصداقية، لكن رد الفعل غريب.. لم تجبني ولو بنظرة.. لابد في الكون مشكلة. هناك عنصر من عناصر الحياة معطل. الشمس في قلب السماء تبث حرارتها ونورها بمنتهى القوة، فلماذا تجمدت الدنيا وفقدت حيويتها كأن ماكينة الشمس لا تعمل. هناك شيء مهم جدًا غاب عن العقل والشعور. الناس أمامي يتبادلون الكلمات لكنني لا أسمع صوتا. حركة الشفاه نشيطة ومعها الأيدي والعيون وملامح الوجوه لكن لا أصوات. إذن أنا فقط من فقد مركزًا من مراكز المخ.. حالة كسوف أو خسوف في غير موعدها ومع ذلك فموقف البنت محير.. لا يدل على أدنى اهتمام.. ألست في نظر أي فتاة عريس لُقطة؟ عريس به كل المواصفات الجذابة لفتاة بائعة وربما بائسة. لُقطة حتى في عيون الآباء والأمهات والأقارب. من الطبيعي إذا تقدم إليهم من كان مثلي -وهم قلة- لابد أن يطيروا من الفرح مهما كان جمال ابنتهم، وأيًا كان عدد خطابها قبلي سيضطرون لصرفهم، أو على نحو أدق سيسارعون بطردهم فالولد –أنا– بالتأكيد يقش.

عُدت أسألها:

- إيه رأيك يا بنت الناس؟

قالت بحياد قاطع بطعم الرفض:

- أنت كبير.

- في الأربعين.

- وأنا 18.

- متقليش عن واحد وعشرين.

ابتسمت وقالت وهي تضرب صدري بيدها المبتلة:

- يخرب بيتك، والنبي صح.

فرحت للدعابة التي طلعت عليَّ من وجه زادته الابتسامة جمالًا.

- بتشتغل إيه؟

- أستاذ جامعة.. دكتور.

- بس أنت متجوز.

- كنت.

- عندك أولاد؟

- ولا ريحتهم.

انشقت الأرض وظهر أخوها فجأة، يطلق من عينيه الشرر، صارخًا:

ـ في إيه يا أفندي؟!

لا أدري لماذا اضطربت جدًا، وكادت أوراقي ونظارتي تسقط مني كأني كنت أسرق.. قلت له وأنا أحاول التماسك:

- إيه مالك يا أخينا.. أسألها عن السمك.

ضحكت البنت وقالت:

- سمك! بيقول عايز يتجوزني.

هممت أن أفرح لقولها حتى ندخل في الموضوع مباشرة، لولا اشتعال وجهه وبسرعة كانت المطواة في الجو بينها وبين عيني سنتيمتر واحد.. بمنتهى السرعة أنقذت رأسي مبتعدًا نحو شبر.. التقطه واقترب مني.. دس أنفه في عيني، وقال:

- تكذب من أولها.

- أنا كنت...

- حا نفوتهالك المرة دي.. أبويا عندك.

التقطت أخيرًا أنفاسي بعد أن كنت قد أوشكت على الانهيار رُعبًا.. سحبت كرسيًّا وجلست بجانب العجوز.. مد لي بوز الشيشة.. رفضت ونقلت له على عجل رغبتي دون لف أو دوران.. وافق.. لم يتكلم في أي جهاز أو مهر أو فرش وملابس وشبكة.. قال بحدة:

- عندي طلب واحد.

- تفضل.

- حِسَّك عينك تزعلها.. ثمر الجنة عندي بالدنيا.

لم أفهم: يعني إيه ثمر الجنة؟

- ثمر الجنة بنتي.

- اسمها ثمر الجنة؟! الله!

سرحت أستطعم الاسم وأدهش لدهاء المصريين الذين يجمِّلون حياتهم بالأسماء ويتخلصون من الفقر والنكد ببعض الزينة البسيطة.. لكزني العجوز في كتفي قائلا وهو يحرك أصبع السبابة مهددًا:

ـ لو اشتكت منك يوم.. يوم واحد مش حا تكفيني عيلتك.. إحنا فاتحين مع السجن «أبونيه».

ـ في عينيَّا يا عم الحاج.

تزوجنا بعد أسبوعين..كلمت معظم إخوتي فاعتذروا. لم أكن أعرف مكان أبي.. حضر ثلاث من بنات شقيقيّ..

تمرغت في العسل، غير عابئ بالجامعة والأبحاث والترقية وكيدمان وقلت بمنتهى الجسارة.. طظ في أمريكا ومن يتمنى الوصال معها.. كنت مشغولًا بقاع المجتمع اللذيذ.. جننت بالجسد المشتعل، وعندما أتداعى وتنفك كل مفاصلي أتأمل الوجه الجميل. قضينا أجمل أيام حياتنا في الإسكندرية. انتهت تلك الأيام مع الخميس حيث قالت وهي تعبث بشعر صدري:

- اشتقت للسمك يا واد يا نادر.

ابتسمت ثم أكلت شفتيها في قبلة نهمة وسريعة وقلت:

- دكتور من فضلك يا جنّونتي.

- أنت لا تشبع؟!

- إنتي مجنونة رسمي أشبع إزاي وليه؟

- اشتقت للسمك يا دوك.

عدت أبتسم لما خطرت ببالي جملة لطيفة.. أسرعت بقولها:

- سمك إيه انت معاك الحوت شخصيًا .

ضحكت وردت بأفضل منها:

- الحوت يحب يلعب لوحده.

- السمك أمامك في البحر وشايفاه من بلكونة الفندق.

- عايزة السمك بتاعي اللى في الأحواض الإزاز.

في صباح الجمعة تركتني وأسرعت بلبس السوق إلى سمكها.. استعرضت على عجل وأنا ما زلت في السرير حالتنا طوال ستة أيام من السبت إلى الخميس.. لا أظنها تبرمت من شيء أو عانت من التقصير ولا أنا. كل اللحظات مضت في ابتسام وفرح واستمتاع بكل ملذات الحياة. لم تطلب شيئًا إلا تغيير السيارة بأفضل وأفخم.

قلت لها: من عيني يا زوجتي الحبيبة والشرسة. بس واحدة واحدة.

البنت اللذيذة بداخلها عنف وليس كراهية أو عقد.. أسلوبها في الحصول على حقوقها مغلف بشراسة غير مزعجة حتى الآن. لا أعرف ما الذي يمكن أن يحدث مستقبلا بعد أن تذهب السكرة وتأتى الفكرة. بعد أن ينتهي الحلم وتجيء لحظات الحساب. ربنا يستر. أنا لن أسمح لأي شيء أو أي خلاف بأن يكسر حوضنا الزجاجي. نحن أيضًا سمك، وإن كنت سأحاول أن أغيِّر الزجاج الضعيف والهش بزجاج عشرة مللي ضد الرصاص. سوف أثبت لها ولي وللسيدات العجيبات اللواتي عرفتهن بأنني غير ما تصورنني ولن أسمح لهن بأن يشمتن.

أكثر من مرة قلت لها:

-عبقري اللي سمَّاكي ثمر الجنة.. اسم على مسمى.

أكيد كدمان يشد الآن شعره فقد وعدته ببحث مميز.. أنا على أعتاب تحقيق ما وعدت، لكني أحتاج بعض الوقت حيث إني أسبح في بحر السعادة الذي يمحو من الوجود ما عداه على الأقل الآن.. أنا في الحقيقة طول عمري محروم.

(10)

بعد شهور.. بمناسبة تكرار مدحي لها ولاسمها، سألتني:

- يعنى أنا لي قيمة عندك؟

قلت: طبعًا.. بس سامحيني لأني بشخر وأنا نايم.. تصوري مرة سمعت نفسي وأنا بشخر.

قالت في شبه صفعة: مش مهم الشخير.. المهم البخل!

صدمني كلامها، لأن الأمر لا يخلو أحيانًا من بعض الحرص الذي قد يزعج من لا يفهم مقاصده.. الموضوع لا يستحق.

قلت: سامحيني، لأني مش فاضي أفسحك.

قالت كأنها لم تسمعني: مش بس البخل.. الأسوأ الشك.. المحاصرة والمراقبة.. أنت تسأل عني الخدامين والبواب والجيران، غير اتصالاتك بالتليفون الأرضي والمحمول، غير أسئلة كتيرة غرضك تمسك تصرفات أو كلام تحسبه عليّ.. أنت شخص شكاك وما عندكش ثقة بنفسك.

أفزعني الهجوم المتواصل.

قلت من قلبي: غيرة وحب وحياتك مش أكتر.

- اللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى.

- ليه تقولي كده؟

-الراجل يستطيع من فهمه لشخصية مراته أن يعرف كل أسرارها.

- أنا فهمتك وانت بميت راجل.

- مش صحيح.. أنت بتشك عمّال على بطال.

قلت لأنهي الموضوع: أوعدك أتغير.

قالت بنت العشرين: الراجل لو شك هو من يدفع الثمن من أعصابه وسعادته، وأنا مفيش على رأسي بطحة. ماليش غير بيتي والسمك.

- أعرف كده.

بعد ستة أشهر أخذث ذهبها فقط وتركت البيت.. لم أصدق.. زلزلني ما وعيته بعد وقت. مؤكد غواها أحد.. حبيب أو أخ.. لم أقصر معها لحظة.. لم أغضبها كما طالبني أبوها.. وفرت لها حياة لا تتوفر لأميرة. المرأة كائن غريب.. مجنون ومعقد متعذر إرضاؤه.. لا.. لن أتركها أبدًا سأستعيدها مهما كلفني ذلك، وسوف أسكنها في سجن محاط بالسلاسل والحراس.. هذه الجوهرة الثمينة والنمرة الشرسة لابد من إحاطتها بما يحميها من نفسها ومن اللصوص.

مضيتُ إلى منزلها وهو مقبرة في الإمام الشافعي.. سألت أمها عنها.

قالت: في السوق.. أنصحك ما تروحش.

لم أهتم بالتهديد.. سأجرُّها حتما إلى بيتها.. لا أقبل أن تقف زوجتي في السوق لتتلقى النظرات والكلمات الخارجة أو التحرش.

ـ سبتي البيت ليه؟

لم تلتفت إليّ، وقالت في ازدراء:

ـ بيت.. كل اللي عندك أقل من تمن شبشبي ده.

تمالكت أعصابي المتوترة المستعدة لكل شيء حتى ارتكاب جريمة أو على الأقل فضيحة.. لم أمنع نظري أن يهبط إلى الشبشب الممزق والملوث بالوحل.

قلت ببرود مصطنع:

- طب إنت هنا ليه؟

- أخويا ضرب واحد ودخل السجن.

- إمتى؟

- أول امبارح.

- لو سمحتي تعالي معايا.

فجأة وخزت بطني سكين.. اختطفتها في لمح البصر دون أن أدري من أين، كانت يدها فارغة.. أكلت أسنانها وهي تقول:

- إيه رأيك؟ فات وقت الكلام.. إنت قشرة، عارف يعني إيه قشرة؟

كلامها صفعات متلاحقة.. لم تترك لي فرصة لأي كلمة مهذبة.. لُمت نفسي بشدة لأني سمحت لها بإهانتي أمام الناس والسمك.. قررت أن أتركها الآن والعودة مرة أخرى.. لعل وعسى.. أنا قشرة !

يا نهار أسود.. كلمة واحدة مهذبة، لكنها قاتلة وماحقة. قشرة تعني مجرد شكل يختفي تحته باطن سيئ، وتعني رجل فالصو.. كله مزيف.

بعد يومين فقد كل كلامها حرارته وتأثيره كأنها لم تقله. اشتقت إليها فقد كانت بالفطرة تعرف كيف تصنع

البهجة وتغرقني في السعادة.. ذهبت إليها فتركتني بين الناس بلا كلمة، وأنا مجرد شحاذ يقف بباب السلطانة والجميع يدهش لحالي.. كنت أتسول نظراتها.. قلت لوالدها:

- خد كل ما أملك وأعد زوجتي إليّ.

سحب الأنفاس من الشيشة بمزاج ونفخها لأعلى، ثم قال:

- أهي عندك تفاهم معها.

أحببتُ السمك ذلك الكائن الوديع بلا ادعاء.. الماهر بلا جبروت.. حاولت أن أعرف أسراره وأهواءه وأمانيه.. سلمت له نفسي كي يهديني بصبره وتغاضيه عن أدران الوجود.. قررت أن أعوم كما يعوم السمك في الحوض.. طلبت منها أن تعلمني.. علمتني وقضيت شهورًا معها أمام السمك، السمك الذي استحوذ عليّ.. أبيعه لمن يريد وأدله على طرق خدمته ورعايته ليكون بهجة دائمة له.

اتفقت معها على أن أذهب إلى الجامعة يوم الأربعاء، والمركز الأمريكي للدراسات مع كيدمان يوم الخميس، والجمعة والأحد معها أخدم السمك وأحبابه والسبت لها وحدها.. الاثنين والثلاثاء لأبحاثي وقراءاتي.. رضيت وقبلت العودة إلى البيت، ولم أستطع أن أخفي سؤالي المُلح عن الشبكة وكل الذهب الذي أخذته من البيت.. قالت بقرف: الذهب أخرج أخي من السجن. ارتحت.

قلت: آه.

سألتني: عندك اعتراض؟!

- لأ.

كما علمتني السمك.. علمتني الحياة.. وعلمتني احترامها.

شغلتني فكرة أن أجد علاقة وثيقة بين البشر والسمك. هل البائع هو القدر الذي يربيهم ويحملهم من حياتهم المائية في شبك؟ فكرة مقبولة. السمك كالبشر مغرم بالطعام والجنس والتناسل. وكالبشر يلعب بذيله.. كالإنسان.. والكبير اعتاد أن يأكل الأصغر حتى لو شبعان ومصيره ليس تمامًا بيده والبشر كذلك.. مصائرهم تحددها الجينات المدسوسة فيهم وفيها برامج تشغيلهم وعقدهم وطموحاتهم.. السمك يتحرك داخل كون زجاجي هش، والإنسان لا يختلف كثيرًا. المشكلة أن السمك بلا عقل، فماذا أفاد الإنسانَ عقلُه؟! السمك ككل الكائنات مصيدته جاهزة.. الغريب أن كيدمان أعجبته الفكرة لكنه طالب بالتفاصيل والشواهد ومزيد من الحفر والتفكيك.

فوجئت بصفحة كاملة في «الأخبار» عني وعن السمك وعن ثمر الجنة والسوق، نشرها ابن أختي الصحفي يسري رشدان.. حازت على إعجاب الكثيرين ودهشتهم ونقلتها صحف أخرى، وسعت القنوات التليفزيونية للتسجيل حول الموضوع معي ومع ثمر.

أصبحت أومن –على عكس ما كنت أومن من قبل– أن الحب أهمَّ من الذهب، وثمر الجنة أهم من الحياة.

(11)

هل الأيام هي المولعة بنصب الفخاخ لأبناء الدنيا التي تتحرك بكثير من النزق فوق أرض زلقة؟ راود آدم كثيرًا هذا المعنى بشكل غامض، وربما لم يفهمه تمامًا.. لام نفسه.. لو تعلَّم لفهم. وسواء فهم أم لم يفهم، فلابد أن يذهب إلى السوق، وأن يفرش بضاعته في مكانه الثابت المعروف، فليس من حقه أن يحطها في مكان آخر، وليس من حقه أن يغير جيرانه ولا الوجوه التي أمامه إلا بالاتفاق.. هذه أعراف السوق التي لا سبيل لتغييرها، وهي في الوقت ذاته دستوره الذي يحميه ويبقيه قويًّا ضد أية سلطة. وبصرف النظر عن النظام فقد تعود أن يذكِّر نفسه إذا تبرَّمت: «الزق مطرح ما ترزق».

فكرة واحدة مهيمنة عليه. الدنيا تحاصره في ركن ضيق جدًا، وتأمره أن يركض من أجل لقمة العيش، وما عليه إلا الإذعان.. اركض بسرعة.. اركض، إياك أن تتوقف أو تنام.. القطار يدب ويدمدم وراءك وسوف يدهسك، وليس لك من طريق إلا ما بين قضبانه.. لكنه كثيرًا ما تمنى أن يباغت الحياة والناس بموقف جديد يغير به قدره. لم يكن يعلم أنه قريب محمد جرجس من بعيد، وأن به بعض نفحاته العِرْقية وبعض جيناته.

جهز الترابيزة وغطاها بالملاءة القديمة المخططة بخطوط بنية عريضة.. الملاءة ذاتها لا تتبدل. سحب من أكياسه البلاستيكية البيضاء التى اقترضها من بائع

الأعلاف عرائسه وذُماه.. أسود ونمور. دِببة وغزلان. قرود وزِراف. كلاب وقطط. جِمال وأرانب.. اجتمعت لديه الحيوانات التى تعيش في الغابة وفي البيوت والشوارع.. أكبرها الأسد الذى يكشِّر دائمًا عن أنيابه، ويفتح فمه الأحمر عن آخره، وينطلق من عينيه الشرر، ويفرد شواربه التى يمكن أن تقف عليها صقور ونسور وقطط، لكنه أبدا لا يُخيف، إذ إنه ليس أكثر من دمية، وقد آثر ترك الوحشية والافتراس لسكان الأرض من البشر.

لا يقل الرواد إلا ساعة صلاة الجمعة التي لا يحرص آدم عليها لأنه لم يتنبه إلى الله بعد، ولم يوجهه أحد من أهله إلى ذلك، كما أنه قضى معظم سنوات عمره في الشوارع. يتوفر له بعض الوقت فيقضيه في تأمل حاله الذي لم يشعر يومًا أنه حقق شيئًا ذا بال: لا سكن مستقلًا ولا دكان صغيرًا، ولا زوجة دائمة تدر عليه السعادة وتشمله بحبها. الرزق خفيف بالكاد يوفر له العشاء البسيط: طبق كشري أو علبة سلمون أو بيضتين أو قرصين طعمية أو قليل من البطاطس المقلية.. المهم أنه يفكر ويفكر، ويظل يفكر ولا يحقق من أمانيه شيئًا ولا حتى العثور على الطريق الموصل إليها.

في وقت فراغه مرة استدرجته الحيوانات المرعبة المصنوعة من القش التي يبيعها.. تأملها وفكر قليلًا فيها. لاحظ أنه مثلها.. يمكن أن يصرخ ويهدد ويرفع عقيرته، وقد يضرب، لكن بداخله يشعر أنه مصنوع من

القش وأنه لا يُحسب بين البشر. بل هو أقل من الفأر والقطة والكلب الحقيقيين. كيف يمتلك القدرة على أن يكون ملء السمع والبصر أو على الأقل يغادر السوق، ويفتح محلا في وسط البلد مزينًا بالديكورات والزجاج «الفيميه» والأضواء «النيون» ومكتب وخزينة، وعمال ينفذون أوامره، والزبائن بين داخلٍ وخارجٍ بلا توقف، وماكينة «الكاش» تبتلع عشرات الجنيهات كل ساعة، وهو يدخن أغلى السجائر ويركب سيارة آخر موديل، ويسكن في شقة في عمارة بالمعادي على النيل في الدور الرابع عشر، وطبعا يطلع لها بالمصعد، وإذا كان صعبًا أن تكون ملكًا فالإيجار مقبول مؤقتًا.

تنبه فجأة على صوتٍ يسأله في عبارة مكررة عن ثمن العروسة لابنته، ها هو قد فرش معرض الحيوانات الجميلة الأليفة متنوعة الأحجام والألوان، وكلها للكبار والصغار، ألعاب وزينة وهدايا في أعياد الميلاد وكل المناسبات، وسكة وصال بين الأحبة. رد على السائل الذي اشترى عروسة ودبة.

قال آدم لنفسه بصورة شبه آلية: ربنا كريم لا ينسى عبيده.. من الجحر ده ممكن الواحد برضه يحقق أحلامه ولو طال الزمن شوية.. ولا شويتين.

وصل كشري ضئيل الحجم، جار آدم في البيت والسوق، فهما معًا يسكنان بيت زميلهما شطة.

ـ صباح الفل.

رد آدم وهو يحاول أن يتخلص من حالته:

ـ صباح النور.. ناموسيتك كحلي.

قال كشري وهو يفتح أكياسه الكبيرة البيضاء:

ـ كابوس مقرف بعيد عنك.. مِسكني من أول الليل لآخره.

ـ تلاقي شطة كان بيشخر.

ضحك كشري نصف ضحكة، وقال:

ـ عادته ولّا حا يشتريها.

دنا منه آدم يعاونه في نقل صناديق لعب الكبار.. الطاولة.. الدومينو.. الشطرنج.. علب الكوتشينة.. الشيش الصغيرة التى تزين بيوت الغاوين.

غمز كشري بعينه لآدم:

ـ بُص على صاحبك.

ـ مين؟

ـ ورايا يا سرحان.

ـ آه.. رجب.

شده كشري من كمه وقال:

ـ تعالى نقفشه.

مضى آدم وراء كشري من باب الفضول على أمل أن يتسلى قليلًا.. رجب وراء سجادة جاره الكبيرة المتدلية من كمرة حديد، يصب من زجاجة البيرة في زجاجة دواء الكحة خوفا من زوجته التي ستأتي بعد قليل، ومن المؤكد أنها ستطين عيشته. نصحه الأطباء أن يبتعد تمامًا عن البيرة.. كبده تقريبًا انتهت بعد أن أصابها التليف، وكبرت جدًا وهاشت. بطنه بالتالي كبر وأصبح

يبدو كالمرأة الحامل في التاسع.. وجهه ذابل وضامر، لا يتوقف عن شرب البيرة التي عشقها منذ أيام الشباب البعيدة، وتنازل عن كل ملذات الحياة إلَّاها، وعندما تظهر زوجته يبدأ التمثيلية بالكحة، ثم يتجرع من زجاجة دوائها المزيف.. الغريب أن أباه مثله، ورغم ذلك شكت له زوجة رجب أفعال ابنه.. منعت نفسها من اللطم على خدودها وتمزيق صدر ثوبها كمدًا، وهو يقول لها: «خليه على هواه لما ييجي ديله على قفاه».

عاد آدم عندما لاحظ أن الزبائن بدأت تهل في جماعات بعد الصلاة، تهادى كشري وهو يصفق عاليًا ليحيي النهار والصباح الجميل، متمنيًا أن يكون اليوم «نادي»، هو نفسه ضحك على نفسه عندما تذكر وصف آدم له، بأنه: زي الضفدع حس عالي وجسم مفيش.

خطف آدم نظرة إلى سطح «مودَّة». تعودت أن تصعد إليه إذا الشمس سطعت.. قال لنفسه:

ـ طلعت الشمس يا مودة وانت فين؟

سأله كشري:

ـ مش حا تفطر.. أجيب لك طبق كشري؟

ـ ماليش نفس.

ـ غيِّر مية الشيشة.. وخليك حلو.. المسألة فات عليها شهور.

قال آدم وهو شارد:

ـ رحت بعيد.

تنهد، ثم استأنف ليغير الموضوع:

ـ قلت حا تبطل الكشري.. هو إدمان؟ كرهناه عشان خاطرك.

قال كشري وهو يتلوى تعبيرًا عن خبرته:

ـ إيش فهمك إنت في الأكل.

أخذ آدم الكلام على محمل آخر.. فاسود وجهه غضبًا.. أراد أن يخرج من الحالة.. هربت عيونه إلى سطح مودة، حاول أن يدندن مع سيد درويش:

ـ طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة.. يللا بنا نملا ونحلب.. لبن الجاموسة.

وأكمل:

ـ حاولنا نحلب لبنها قفلت البز.. آه من عمايلك يا جاموسة.

تنهد:

ـ أشكي لمين وكل الناس مجاريح.

حاول أن يدندن فلم تتحرك أحبال صوته. قمعتها مشاعره الأسيانة.. كادت الدموع تطفر من عينيه.. اختبأ بنظراته في حيواناته المستكينة، المحشوة بالقش وفتافيت الملابس القديمة والقصاقيص.. حيوانات هشة ليس لها إلا شكل جميل، «من برة هلا هلا.. ومن جوه يعلم الله».

كان رأسه كغرفة العمليات، وكان هو الممدد على الطاولة، وهو نفسه الطبيب الذي يقوم بإجراء العمليات الجراحية لعقله وقلبه، وكالعادة فشلت وساءت حالة العضوين وأعضاء أخرى، وكان الأطباء المساعدون

والممرضات كالعادة يضحكون مما يجري ويدهشون.. وكان المارة كذلك!

هل تراها خدعته جوارحه، وغررت به حين ألقته على حافة المتعة والهاوية؟ مودَّة.. ذلك الكائن الجميل الذي حلم به طويلًا، وكانت بكل نظرة من نظراتها تصنع شموسًا وغيومًا وأنهارًا من عسل، ويظل في أحضان الحلم اللذيذ بالليل، ويقدم القرابين بالنهار حتى نالها، وعندما امتطى الفرسة العفيَّة تمدد تحت أقدامها على الفراش وانسحبت روحه ورغبته وخانته الذكورة.. كلما صهلت تراجع. أيام وشهور شهدت ذهوله.. مصيبة المصائب سابت الناس كلها وحطت عليه.. الشياطين اختارته لأقسى تجارب الإنسان.. الجمال والجسم الفائر والنار والغرام يملأ القلب، لكن مفتاح البوابة سقط في بئر مسحورة.. لابد هناك من فعل به هذا.. عمل له عَملا يربطه.. يبدو أنه عمل من حديد وليس بحجاب!

قال لها: اكفي على الخبر ماجور لحد ما ربنا يجيب الفرج.

قالت ببطء وهي تتنهد وتمط شفتيها ضجرًا:

ـ سرك في بير.

لم يستطع أمهر السحرة وحلالي العقد، فك الربط المتين.. زار أولياء الله الصالحين ولجأ إلى المشعوذين والدجالين ولبس الأحجبة، واشترى من الخواجة جاره في السوق مسجلا حشاه بشريط الطبلاوي لا تقرأ فيه إلا سورة البقرة ليلا ونهارا لعلها تفك النحس، لكن

الفرسة كانت تصهل باستمرار والثور يخور.. صبر الفرسة مثل زور الحمامة، وكل الطرق كانت تؤدي إلى الصمت المشوب بالانكسار والحسرة.

أخرجه كشري من حواره اليومي حول المصير البشع الذي آل إليه. دعاه للإفطار حيث يتجمع عدد من الباعة عند المعلمة توحة.

أعدت توحة صينية فول مدمس بالطحينة والشطة والزيت الحار والكمون والليمون ومعها البصل والباذنجان المخلل. أرسلت من اشترى لها من الطابونة ثلاثين رغيفًا ربما تكفي الجميع، ومضت تدعو كل من له رغبة من الباعة والزبائن:

ـ تعالى اجبر الزاد.. لقمة هنية تكفي مية.. يللا يا فندي، يللا يا بيه بصلة المحب خروف.

كانت تدعو للطعام كأنها تدعو المشترين لبضاعتها أو أنهم سيدفعون الكثير من المال.. الزبائن يمرون بها ويدهشون من تصرفها، الغريبة أنها لم تكن تأكل بانتظام، فهي تلتقط لقمة مقابل عشر لكل واحد من الرجال.. مشغولة بالكلام، حتى رأت ابنتها تأتي متهادية في كسل فاستلمتها بالسخرية:

ـ على ما تتكحل العمشة يكون السوق خرب.

ـ مالوش لازمة يا أمه.

ـ له ونص يا ضنايا.. ورانا أكل عيش.

ـ عيش وفول يا معلمة.

ابتسمت نصف ابتسامة، وقالت:

ـ سايباني لوحدي يا بت.. خدي.. عملت لك شاندوتش.

تمد يدها وتقبض على الساندويتش.. تقضم منه وسرعان ما تنطق في دلال:

ـ ده ملهلب يا أمه.

ـ كلي يا بت علشان تنسندي.. اتفضل يا فندي.. اتفضل يا بيه، اجبر الزاد.

شطة يقول لها ضاحكًا: زاد إيه يا توحة.. الصينية فضيت.

ترد عليه: بالهنا والشفا.. مطرح ما يسري يمري.

نهض آدم. قبَّل كفه ظهرًا لبطن وحمد الله.. عاد إلى بضاعته كأنه كان على موعد مع رزقه.. باع قردًا وغزالة.. ثم نمرًا ودبًا.

ها هو شاربه ينبت من جديد وكان قد حلقه..

يقول في نفسه: إيه فايدة الشارب المبروم والنخيل مايل؟!

خطف نظرة لسطوح مودة.. في اللحظة ذاتها كانت تظهر تربيعة مودة الحمراء المزينة بالترتر تسبقها، وهي تصعد على السلم الداخلي الخشب إلى السطح.. فردت طولها وبان عودها الرشيق وتقسيمته الرباني التي تشعل السوق.. مالت قليلًا نحو الشارع:

ـ بِسْ.. بِسْ.

بسبست لجابر بائع الكولونيا والكريمات والشامبوات المجاور لتوحة.. لما رفع رأسه ناحيتها.. قالت:

ـ ارمي لي حُق كريم.

رمى الحُق، وهو يقول:

ـ كده وصلك تلاتة.

قالت له بدلال وتخميسة من كفها:

ـ كُبَّة.

جلست في الشمس أمام آدم. عرَّت ذراعيها وساقيها وسحبت التربيعة ونترت شعرها الأسود الكثيف الذي كم شمه وشرب من عبقه ودفس فيه أمانيه، ربما مع الأيام تزهر.. انطلقت غيطان شعرها فرشت على ظهرها. وتلفت الشبان من الباعة والمارة.. أغرقها مطر النظرات التي تعودت عشق الجمال حتى لو شبعانة. شربت روحها من العيون رضا وغرورًا.. ولم تمنع نفسها من أن تقول: شاطرين بس ياكلوني بعنيهم ومش لاقية راجل!

مضت بالسبابة والوسطى بعد أن لمت على بعضها باقي أصابعها، تحتفن من علبة الكريم وتمسِّد بحنان لحمها الأبيض الوردي.. بدأت بساقيها، وعينا آدم مع الكريم تجريان على قوالب النور والرخام والزبد المخزن في بطن الساق.. طلع معها على الذراعين، وقبَّل بعينيه الحنان اللذيذ ونعومة الحرير في اللحم الضاني.

عرف كل هذه الكنوز ورآها، فجن جنونه، ونصيبه لم يسمح له أن يلمسها لمس المحروم، وفرق السماء والأرض بين لمس الشبعان ولمس المحروم، وقد حسبته الأقدار على الشبعانين.

الذراعان والساقان تشرق عليها الشمس بزيادة، وعيون المحبين يجننها الشوق بزيادة، وقلب آدم فاق الكل وزيادة.

كاد يلطم خدوده من جديد، وينطح رأسه في أصلب الحيطان بوصفه سيد المحرومين وإمام المعذبين في الأرض، عندما علم أنها تزوجت غيره بعد أن طلقها.. لم تصبر إلا ساعات الليل.

احتفلت بهدوء شديد بجوازها من جندي من جنود الأمن المركزي رماه عليها خالها.. لم يستمر الزواج أكثر من شهر.. أجبرته أن يطلقها واختفى تمامًا ولا يعرف عنه أحد شيئًا، وقيل ترك الأمن وعمل في محل دواجن يخلع عنها ريشها بعد أن يسقطها عدة مرات في الماء المغلي. بينما اختفى من الوجود خالها الذي زوجها له وزعمت الأخبار أنه يقيم مشروعًا بالمشاركة مع بلدياته من الشهايبة في سوهاج لتربية العجول ويقيم هناك إقامة كاملة.

بعد شهر لم تظهر كعادتها على السطح وقيل سافرت إلى بهنسا لتتزوج من أحد أقاربها الأغنياء، وبعد شهرين عادت وحدها ولزمت الدار، وشوهدت كثيرًا على سطحها.. ترعى دواجنها وتركض وراءها وتتناول طعامها وتنشر غسيلها وتجهز الخضروات للطهي وتحمَّص جسمها بالشمس وتعرف أخبار الدنيا، وتسمع من الراديو الترانزستور أغاني عبد الحليم ونجاة.

كم رأت من برجها العالي معارك وغراميات وصفقات وسرقة وخطف! ورأت قتلًا أحيانا ولواط عيال، وموتى يعبرون إلى المقابر محمولين في النعوش والرجال وراءهم يدَّعون الحزن، والنساء تولول مؤقتًا حتى يواري الرجال موتاهن تحت الثرى.

لما طردت آدم عاد للسكن مع شطة وفرقته العشرة. لا يدري السر في أنه يشك في أحدهم.. ذلك الشاب الغامض واسمه عاصي.. لوح شطة بأنه من المحتمل أن يكون وراء ما يجري.. فكر آدم أن يخنقه وهو نائم، لكن قلبه لم يطاوعه، فليس بينهما لا محبة ولا عداوة.. قال لنفسه: حل مشكلتك بنفسك ولا تُحمِّلها لغيرك.

لم يتمكن من تنفيذ خطة جهنمية دعاه إليها شطة، بأن يفرغ له الشقة من سكانها ويستدرج له فتاة لتجربة عدته، فلم تفرغ الشقة.. دائمًا هناك الداخل والخارج والنائم والصاحي.. القريب والغريب، ودائما هناك أهالي قدموا لزيارة أولادهم.

تمكن آدم من تنفيذ نفس الفكرة في إحدى المقابر، وجاءت النتائج مبشرة جدًا، وكرر التجربة في مقبرة أخرى، فقد ساورته الظنون باحتمال وجود سر في المقبرة الأولى أعانه على تحقيق المراد، وقد
لا يتحقق المراد ذاته في مقبرة أخرى، لكن التوفيق حالفه في كل المقابر التي استخدمت كمعامل لإجراء التجربة التاريخية والمصيرية، برغم مطاردة المقرئ الأعمى الذي يدهش آدم بإحساسه، وكيف أنه يظهر له

في كل مرة، ويشعر به ويتعقبه كأنه مكلف بمراقبته، وقد سمعه عدة مرات وهو يقول:

ـ وحياة أمك يا نتن لامسكك، وساعتها شوف إيه حا يجرالك.. ولا عزرائيل نفسه حا ينقذك مني.

(12)

توطدت العلاقة بسرعة غريبة.. فوجئ بها تغسل ملابسه وتنظف له الشقة وتعد له الطعام، واشترت له ملابس داخلية، وجلبابًا صوفيًا عندما هجم الشتاء، ولما حاول مرة تقبيل يدها، قبَّلت رأسه، ولما تكررت المحاولة فوجئت به يحوطها بذراعيه وتغيب في دفء أحضانه وجسدها ينتفض ويستسلم، ربما كان غياب بصره مشجعًا، إذ تسلل إليها شعور بـأنها تتذوق بعض شهوات الجسد من وراء ستار، ولا عين هناك تراها وهي في أمان حتى لو تعرت أمامه.

جوعان، غاص في اللحم الجوعان ونهل من آباره. لكنه كان مشدوها باستشعاره أنه يبصر لا الجلد والأعضاء المشبوبة، ولكنه يبصر ما تحتها وما تحت تحتها من الأفران الموَّارة.

كان يتصور أنه يرى شريان الشهوة كنهر الحمم قادمًا من بؤر مجهولة، ويشق طريقه مسرعًا ليشعل الحرائق في كل الأعضاء والعضلات والأعصاب والدماء، وما يلبث هذا النهر أن تلتهمه هوة سحيقة فتهب العواصف ويجتاح الجميع زلزال هائج.

سألته عن اسمه الحقيقي.

قال: لا اسم لي.. سميني.

ثم استدرك:

ـ لا داعي أن تختاري لي اسم زوجك.

ابتسمت واحتجت:

- ليه.. اسمه جميل.

- لإنك لو ناديتني به وأنت معي في خلوة أعتبرك خائنة.

- اسمك اللي في البطاقة.

- لا يهم.. سميني أنت لإنى اتولدت على إيديك.

سكتت لحظات وأصبعها على فمها تفكر، ثم قالت:

- يوسف.

- ليه اخترت الاسم ده بالذات.

- بحبه.

- يبقى إنت زليخة.

مضى يعاتب نفسه لأنه استغل وحدة الجارة وغياب الرجل عنها.. وها هي تسميه يوسف، لكن «يوسف» نبي حماه الله ونجاه ·﴿ڤ ڤ ڦڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃڃ﴾·، وهكذا استعصم يوسف لما رأى برهان ربه، ولم أستعصم، واستحللت ما ليس لي. سامحني يا رب فقد كان مرادي الشكر فقط على ما بذلته لي.

رده عقله: يوسف أعرض عن هذا واستغفر لذنبك.

قالت نفسه: لقد شغفتني يا رب حبًا، وأنا من صنعك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. إنك الغفور الرحيم. يا رب إن الشرور تملأ كل ركن، والذنوب تلطخ القلوب، فتجاوز عن سيئاتنا.

نهض فتوضأ وصلى، وأخرج من تحت وسادته خمسين جنيهًا ومر على الشحاذين والمعوزين الذين لا يسألون الناس إلحافا، ودعا الله أن يتقبلها عنه وعنها

وإن ساور قلبه الشك، فليس بمقدوره أن يحسب الحسبة الإلهية فيما يختص بالغفران.. وإن مال إلى أن الحسنات يذهبن السيئات. ولكنه حسم الأمر قائلًا: لا مفر من الزواج.

شعر بتوازن نسبي في نفسيته المرتجفة، لا يجب أن يسمح لنفسه وهو حامل القرآن أن يمضي في عكس اتجاه القرآن وأوامر صاحبه. انحط على الرصيف عندما أخبره شعبان الحانوتي أن زميلهم رضا الحانوتي وجدوه مذبوحًا في المقابر.. شملته رعدة وخوف من الزمن والأحوال.. لقد حضر زواجه بجارته مودة منذ شهر فقط.. يا حسرة على العباد.. لم يستطع أن يتذكر من قال له: «الأيام كحصان سريع الركض، تحملنا إلى المعلوم كما تحملنا إلى المجهول، وهي تعرف كيف ترقص، كما تعرف كيف ترفس».

تنهد ونادى ربه في الظلمات:

«لازلت أسأل يا رب، هل هي الآجال أم فعل البشر؟ أستغفرك يا كريم وأعلم علم اليقين أنها الآجال».

لم تكن في البيت عندما عزم على أن يبلغها قراره.. بحث عن ولدها فلم يجده.. الشقة عليها قفل.. إذن فقد سافرت إلى أهلها في شبين.. كم فكر أن يسألها عن التوتر الناشب بينها وبين أهلها، لكنه كان دائمًا يقول: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم، لتكن هي الراغبة في البوح ولا أرغمها عليه.

هل تنوي يا رب بهذه السرعة أن تسحب عطاياك؟!

انتبذ له ركنا في الشارع يقرأ القرآن وظهره إلى المقابر، ثم آب إلى بيته ومضى يصلي ويدعو الله كي يحفظ محسنة من كل شر.. ثلاثة أيام غائبة ما أطولها! تغلغل في نفسه الإحساس بالظلام.

خبطته بشدة طرقات ثقيلة على الباب.. أدرك أنهم الشرطة.. تلا قوله:

ـ ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه. لن أكتم الحق ولكني في رعب.. الموت أرحم من لحظة صادمة في أعز الناس.

سأل الضابط: هل كانت وحدها؟

رد الضابط بغضب: إنت مش عايش في الدنيا؟!

لاذ بالصمت لحظات وهو يرتعد ثم قال:

- أفدني أفادك الله.

تلفت الضابط حوله وقال بضيق:

-السيارة كلها اتحرقت.

- رحمتك يا رب.. انقلبت بالركاب؟

بدا أن الضابط قد بلغ درجة بعيدة من التوتر لكنه لصالح الواجب يصبر:

- انفجرت. ترك إرهابي حقيبته وكانت بها قنبلة ونزل من السيارة قبل آخر محطة بمائة متر.

الشيخ زاهر يحاول الهروب من المشهد. مرعوب من المواجهة. يخشى لقاء مُحسنة وهي مطعونة أو مشوهة. أمسك رأسه المثقل بالأفكار السوداء. تنفس بعمق.. الحقائق كثيرًا ما تحطم القلوب. الحياة لا تكف

عن توجيه اللطمات القاسية والبشر أضعف مما يتصورون. ليس لنا من الأمر شيء.

وهو يبحث عن مخرج سأل الضابط:

- هل كان معها ولدها؟

- في طفل لم نستدل على أهله، ويبدو أنه ابنها.. هما الباقيين بس.

- بس؟!

- كل المتوفين تعرف عليهم أهاليهم.

- الشياطين ذاتها تعجز عن هذا الفعل.

- بينا يا شيخ.

- عرفتم الجناة؟

- التحقيق بدأ اليوم.

نهض الشيخ بتثاقل. سار مفكك البدن. قال في نفسه:

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..

كل المعلومات تشير إليها. الموت دنا بسرعة، والموت أحيانا أرحم من العذاب الذي سيمزقني إذا كانت هي. يا رب آخر أمنية لي في الدنيا ألّا تكون المتوفاة محسنة فهي روحي، وأنت تعلم عني ما لا أعلمه.

وصلوا الثلاجة. قال:

- دعوني معها وحدي.

قال الضابط: خَلَّص.. عارفين اللي بينكم.

مد يده تحت إبطها وتمنى ألّا يجدها، لكن يده عثرت باللحمية التي تتدلى في حجم حبة الفول، وتحسس

أسفل ظهرها وتعرف على المنطقة الخشنة بمساحة راحة اليد.

عندئذ زعق وأطلق آهة طويلة يسيل منها الدم والدموع ونهر عريض من الأوجاع.

يا سندي ونور عيوني، سيفتح الله نار جهنم على من أنزل بك السوء.

ظل طويلًا يبكي وينتفض.

لماذا لم تأخذني أنا؟ ما ذنبها؟ لا تبقني يوما بعدها.

عجز أن يوقف مسلسل الانهيار.

عاونوه على الخروج من غرفة الثلاجة.. جلس وهو أسوأ حالًا من طفل أبكم ضال.. رأى بكل وضوح خواءً ناصعًا يملأ ما بين السماء والأرض، لا أحد على الإطلاق يمشي أو يتحرك أو يطير.. لا حيوان ولا شجر.. تسلل إليه حدس أن العالم انتهى وسيُنفخ في الصور.

يبدو أني دخلت المصيدة وإنها أغلقت عليّ بإحكام. لابد أن أتزوجها فورا..

قولي ورائي: زوجتك نفسي.. قولي.. قولي.. لابد أن تصعدي طاهرة.. قولي.

وكأنه سمعها تقول: زوجتك نفسي.

ارتج جسده وأوشك على البكاء.. من بين الدموع الوليدة قال لها:

- قولي: على سُنة الله ورسوله.

جاءه الصوت خافتا ومتمهلا لكنه واضح:

- على سُنة الله ورسوله.

- وعلى مذهب أبي حنيفة النعمان.

- وعلى مذهب أبي حنيفة النعمان.

وقال لنفسه: قبلت زواجك على سنة الله ورسوله وعلى مذهب أبي حنيفة النعمان.

تنهد عميقا وقال لها: في حفظ الله وأسأله بفضله وكرمه أن يتغمدك بواسع رحمته وأن يفسح لك في جناته.. مع ألف سلامة.

بعد شهر تقريبًا، ظهر مُلَّاك جدد للبيت، طلبوا منه سرعة الإخلاء.. تدخل بعض الجيران.. قال الملاَّك لأحدهم وتكرر مع الآخرين:

ـ اضرب الأعمى واكسر عصاه.. ما انتش أحكم من اللي عماه.

لم يجد الشيخ زاهر من حل إلا اللجوء إلى المقابر حيث عاش مجاورًا للراحلين، ومنهم محسنة التي لم يتوقف حواره معها، وما عاد أحد يناديه كما كانوا ينادونه فقد حرص على ألَّا يرى أي شيء. أيقن أن الكون يشمله ظلام دامس، وعليه ألا ينشغل إلا بالواحد الأحد ذي الجلال والإكرام، ودوام الاستغفار لأن المصايد في الدنيا بلا حصر.

(13)

بعد أن أجرى آدم تجاربه الذكورية وفتح عشر بطيخات نسائية، وكلها كانت حمراء ولذيذة، عزم على ألَّا يتزوج إلا مودة.

ـ عهدٍ عليّ عمري ما المس غيرك بعد اليوم.. سامحيني أنا مش خاين بس كان لازم أتأكد إني سليم.

مضى يرقص ويصفق ويغني: أنا سليم.. أنا سليم.

سكت فجأة وسكن وتساءل: «المقابر معايا سرها باتع.. والعمل لو الملعب اختلف؟».

ارتعد عندما تمنى أن يسكن في المقابر لكي يفلح في الزواج والمتعة وإنجاب الأولاد.

عندما قرر الذهاب ليطلب إليها قبوله زوجًا من جديد فالحال غير الحال. فوجئ بالخبر الملعون.. لقد تزوجت في الليلة السابقة من رضا الحانوتي صديق «المفتح».

ـ مسكينة يا مودة.. وصل بك الحال تتجوزي رجل حانوتي وأعرج وأعور وسكري.. ياه.. لو صبر القاتل على المقتول ليلة واحدة كنا بقينا مع بعض.. بس برضه مش حا أتجوز غيرك.

ثلاثة من قبل وهذا هو الرابع، إما التواصل ثم الاستمرار والاستقرار، وإما السير على الطريق ذاته ومن ثم الانفصال، وساعتها لا مفر من الاعتراف بأن هناك خللًا لدى مودة.. مودة الأنثى العاتية المتمتعة بأكثر مما هو متاح لامرأة جميلة وشهية. تساءل الجميع حتى الآن

هل يمكن أن يكون هناك عمل معمول لها يعجز معه الرجال عن دك حصونها المنيعة؟!

عبثت به الهواجس التي زينت له الرعب من الحانوتي فربما يضع الله سره في أضعف خلقه، ويستطيع هذا المخلوق الشائه ذو الأنف الكبير والسنام على ظهره أن يبلغ الأعماق التي لم يمس سطوحها الآخرون.. تقلب على أشواك شهوته وكرامته.. لم تعد هناك مشكلة أمامه إلا زواجها من الحانوتي، وليكن ما يكون.. العمر واحد والرب واحد. لا.. لن تكون مودة لأحد غير آدم.

سيطرت عليه فكرة أن يعرف بالضبط خط سير الحانوتي.. متى يخرج ومتى يدخل؟ وكيف يقضي وقته إذا توقف عزرائيل عن قبض الأرواح؟

مع حلول الظلام وبعد أن ينتهي السوق يرحل معظم الباعة ويفكون الفرش، من يملك الأكشاك فإنه يسهر ويفتح طوال الأسبوع وليس كالباعة الوافدين يومي الجمعة والأحد.

بقي آدم بصحبة مرسي الذي يعرض في كشكه أشرطة الأغاني والفيديو لمختلف المطربين وكذلك المسلسلات التليفزيونية إلى أن أغلق في نحو العاشرة، وانتقل للسهر في مقهى «القدس» المجاور حتى الثانية عشرة عندما لمح رضا الحانوتي السمين عائدا يتطوح ويتمتم بكلمات مضطربة، فيها خليط من حواراته مع أصدقائه مع بعض عبارات مسبوكة من خطبه على الموتى والدعاء لهم بالمغفرة مع نكت وبعض العبارات

المشهورة عن كبار المسئولين.. ثم ضحك وتمايل وتخبط وتعثر واختتمها بقوله: يكون في علمكم أنا سيد الرجالة.. آه.

سهر آدم في الليلة الثانية والثالثة، ورأى بالضبط ما رآه في الأولى ولاحظ أن غرفة مودة في الدور الثاني ينطفئ نورها حوالي الحادية عشرة.. ظل ثلاث ليال دون نوم.. يتقلب ويفكر ويحدق في السقف على نور سهراية ومعه في الحجرة أربعة، واحد منهم فقط هو الذي تذمر كثيرًا من حركة آدم المتوالية وطقطقة السرير الخشبي العجوز.

كانت مودة تشغل قلبه ثم شغلت عقله، وتسلل فيروسها إلى روحه.. فكل صوت نسائي يمكن أن يكون صوتها، والقادمة من بعيد قد تكون هي، وأي حديث عن امرأة جميلة في التليفزيون أو في الأغاني إنما يقصدها.. تسلل فيروسها إلى عينيه وأعصابه وفمه.. بات يتصور أن أي حلو يأكله هو شفتاها، وقد تخيل ذلك كلما تذوق الجيلاتي.. وأي صوت جميل بالتأكيد صوتها.. وأي رائحة عطرة تفوح دليل على أنها في المكان أو قريبة.. هي الدنيا والحياة والجمال والدفء والحنان.. هي الحب والأهل والأمل.. هي الحكومة والجيران والصداقة والنزهة والسياسة والمزاج والمستقبل.. هي المصير.

قرر أن يمضي في سكته حتى لو دخل السجن وقضى عمره كله فيه.. لن يسمح لنفسه أن يتزوج

غيرها، ولا لغيره أن يتزوجها.. انتهى.

في الحادية عشرة والنصف بعد انطفاء نور غرفتها.. مضى إلى باب البيت.. لمسه لمسًا هينًا لعله ينفتح دون ضجة. لم يرحب به الباب. حاول بقوة.. كان مغلقًا بإحكام.. لم يحسب حسابًا لذلك، كان والد مودة ومنذ سنوات يترك الباب مفتوحًا حتى إذا جاء ولده الغائب منذ سنين بالعراق في أي ساعة استطاع الدخول.

دار حول البيت من الخلف.. كانت بعد بيتين هناك شجرة. تسلقها في يسر وقفز إلى سطح أقرب بيت، وكان مكونًا من طابقين مثل بيت مودة وبينهما بيت من ثلاثة طوابق.. تعلق بأظافره ويديه وقدميه في الجدار، وجرب عددًا من المحاولات حتى صعد ونزل فوق سطح مودة، ونزل على السلم الخشبي المتنقل ودفع بابها فلم ينفتح.. نقر نقرًا هينًا، فلم تفتح النائمة، فكر أن يطرق بشدة، خاف أن يسمع أهلها في الدور الأول، وإذا صحت ربما تصرخ، لا يضمن رد فعلها، وقد خطط أن تجده أمامها مباشرة فلا تملك السبيل للخلاص.

صعد إلى السطح، وقبع على حرف بئر السلم ليفكر في الأبواب المغلقة والطرق المسدودة والفوران الذي يغلي بداخله والإصرار الغريب على عدم التراجع.. قام وجلس. دار حول نفسه وهو يحرص ألَّا يلمس أرضية السطح.. يود أن يدخن سيجارة. لن يستطيع تحقيق هذه الرغبة حتى لا ينكشف وجوده المشبوه. غيَّر خطته. لا سبيل إلا انتظار الحانوتي.. اطمأن على ما في

جيبه.. كان يرتعد بشكل مطرد.. ليس من البرد ولكن مما يمور بأعماقه.. قلبه يرتجف أيضًا ويواصل القرع على ضلوعه، كأنه يود الخروج.. عقله بركان ملتهب.. أعصابه متوترة كأنه مطارد بقوة لا قبل له بها ونجاته لا سبيل إليها إلا بعبور فضاء بين جبلين على حبل مهترئ.. لا تكاد تحمله قدماه، ولا تستقر على الأرض مؤخرته.. بدا من هول ما يزلزله كأنه يعذب صعقًا بالكهرباء.

تناهى إليه خبط باب الشارع وصعود الجسم الثقيل، قدما بعد قدم والخبط على درجات السلم، والكلمات المضطربة والمختلطة التي تواصلت حتى بعد دخوله الدار.

تأهب آدم وتعالى نبض قلبه وهو يخرج من جيبه زجاجة، فتحها وصب نصفها على منديل. ما إن أدخل الحانوتي مفتاحه في الباب حتى أسرع آدم بالهبوط كقط على السلم الخشبي النقال.. صبر على رضا حتى دخل محشورا بين الضلفتين، وقبل أن يرد الباب خلفه كان آدم قد ثنى ساعده الأيسر بسرعة تحت رقبة الرجل السمين وضغط بمنتهى القوة عليها، وكتمت يده اليمنى بالمنديل على فمه وأنفه.. تقلب الحانوتي وتلوى وحاول أن يزعق أو يتأوه.. حاول أن يدفع ذراع آدم.. حاول أن يرده بظهره العريض إلى الحائط ويضغط، وقد أفلح، لكنه بدأ يتهاوى أسرع بكثير من جبل جليد هجمت عليه فجأة حرارة شمس قاسية.

أصبح عبئًا ثقيلًا على صدر آدم فسمح له بالهبوط تدريجيًا ليستقر مكومًا على الأرض، شاغلا معظم مساحة الصالة أمام عدد من كراسي الأنتريه القديم الذي مازال كما كان منذ عهد آدم.. وقد كشفه نور السهراية الشحيح.

(14)

أصرَّت على الذهاب إلى السوق رغم الحمْل الكبير الذي تنوء به.

طلبت من جابر سائق الميكروباص أن ينقلها والبضاعة إلى سوق الجمعة وهو في طريقه إلى الموقف.. لم يتأخر كالعادة.. شاب يتمتع بنخوة، كما أنه لا ينسى توصيات زوجته المتكررة للاهتمام بصديقتها وردة.

السوق تشغلها والبضاعة وأختها الصغيرة التي ذهبت مبكرًا إلى المدرسة، وأمها لا تزال في ذاكرتها رغم رحيلها منذ شهور وبطنها الذي يثقل عليها ويؤلم ظهرها، والنشع الذي ظهر بقسوة في جدران بيتها، لكن ذلك جميعه لا يشغلها عن صلاح. الحلم الجميل الذي تحول إلى كابوس بسبب الغياب المفاجئ وانعدام أية معلومة تطمئن البال المشغول وتشير ولو من بعيد على ملامح الطريق، إذا كان هناك طريق.

عندما علمت أنها حامل أدركت أنها وقعت في المصيدة.. مصيدة كبيرة لا تكتم نفسها فقط أو تحرمها من الحرية فقط أو تكبل يديها فقط، بل مصيدة مملوءة بالمسامير والعيون والمخالب والفضيحة والسيرة التي تصاحبها أنىَّ ذهبت حتى نهاية عمرها وما بعد عمرها وحتى أحفاد الأحفاد. مصيدة لن ترحم وسوف تضرب بلا هوادة بيتهم القش.

قبل ذلك بشهور كانت أمها مريضة وصلاح بطل المهزلة –ليست مهزلة بل مأساة– اختفى والظروف صعبة. الناس نفسها كما تساعد وتخفف الأعباء وتزيح عنك الأحمال ساعة الأزمات، تزيدها بالثرثرة والحكايات ونقل الأخبار السيئة. إذا عرف واحد فقد عرف ألف.

قضت ليالي طويلة ساهرة تعد وترتب الخطة التي ترسمها لنقل الخبر المشئوم إلى أمها، التي تعاني من متاعب في القلب وتحتاج إلى تغيير صمامين، وعضلة القلب ذاتها ضعيفة جدا، لا يمكن أن تحتمل خبرًا كهذا.. من النادر أن يتحمله أقوى الرجال.. لو لم يتقدم صلاح بسرعة فهي مصيبة بكل المقاييس.

أمها عرفت صلاح وارتاحت إليه.. أدركت أنه شاب محترم وموثوق به. تأكدت أنه يحب ابنتها.. لكنها لم تعلم بما جرى بينهما، «ربنا يا بنتي يجعل لك معاه نصيب».

وهي في الشهر الثالث من الحمل رحلت أمها فجأة. أخذت تبكي وتلطم، لها ولأمها.. دموعها السيالة لم تتوقف أسفًا على نفسها التي غافلها الحب واستدرجها لمقتل، وها هو الحضن الوحيد يرحل.. الدنيا لابد سترحل معها ولا يبقى غير العذاب الذي سيحاصرها بكل الوسائل وهي وحيدة في مهب الرياح العاصفة دون أب أو أخ أو خال أو عم. اختلطت دموع الحسرة على رحيل أمها بدموع الفرح لنجاة أمها من صدمة خبر حملها. موقف صعب وغريب. حكمتك يا رب الكون. كأن

الجنين خرج من رحم أم صعدت روحها إلى بارئها. المصيدة التي أطبقت بكل أنيابها على قلبها خففت قبضتها ولو بالمر والفراق. ها هو الاختيار الصعب أو الاختيار الإجباري الرحيم.

رحلت الأم التي تحملت كثيرا من قسوة زوجها المتولي محمد جرجس وأهله قبل أن يقبض عليه، ومن أخيها عديم الشخصية الذي التهمته زوجته وقلمت أظافره وخلعت أسنانه، ولكنها ربت قلبه بحيث يقسو على أخته.. أما جمال الولد الوحيد البكري الذي كان فرحنا وعزاءنا وظهرنا مات وهو في الثانية عشرة بسبب مرض عجز الأطباء عن تشخيصه ولم يهتم والده بالسؤال عنه ولا ساعد في شراء دواه.

هذا الطريق الذي تمضي فيه سيارة جابر سارت عليه مع صلاح وداست معه على كل حجر وعلى التراب والأسفلت.. عبرت شريط السكك الحديدية القديم الذي قال صلاح إنه كان سكة قطار البضائع المتجه من وإلى حلوان قادمًا من العباسية، والآن أصبح على امتداد كيلو مترين مشغولًا بالباعة والبضائع وزبائن سوق الجمعة شرق كوبري التونسي.. تضخمت السوق.. كل يوم تمتد في جميع الاتجاهات وتخلق لنفسها المسارات والناس والبضائع. كيان عجيب ومثير.. قال صلاح إنه نموذج مثالي للحياة المصرية. ما كل هذه المسافات التي قطعاها معًا من الأباجية والسيدة عائشة إلى التونسي والإمام الشافعي والسيدة نفيسة ومجرى العيون إلى

الفسطاط، وميلا إلى السيدة زينب وأحمد بن طولون وباب زويلة والمعز لدين الله والغورية وخان الخليلي والحسين ومسجد الرفاعي والسلطان حسن والخليفة. كل القاهرة الفاطمية والمملوكية.

تنهدت وتساءلت: «يا ترى إنت فين يا صلاح دلوقت.. الله يسامحك.. خمس شهور ما اشوفكش.. إزاي يجيلك قلب تنساني وتنسى بنتك، وإنت عارف إنها جاية».

وصلت السوق. فرشت بضاعتها وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة. الجنين يكبس على مراوحها.. تشعر بوهن لم تشعر به من قبل.. رتبت الشيلان والإيشاربات والطرح.. أرسل لها الخواجة مع سامي الكيال ثلاث ربطات قمصان نوم حريمي تجذب الزبون وترمي قرشين حلوين. تسند بيدها اليمنى ظهرها مرة، ثم تسنده بيدها اليسرى.

مرت عليها توحة السمينة وبشاير النحيلة.. قَبَّلتاها وسألتاها عن الأحوال.

ـ نحمده.

ـ ما ظهرش؟

ترقرقت في عينيها الدموع، فتماسكت وكبحتها:

ـ لسه.

قالت توحة: أمًا واد ندل بصحيح.

أسرعت وردة: اخص عليك يا توحة، إوعي تقولي عليه كده حتى لو غاب العمر كله.

ابتسمت توحة بفرح: آه من الحب.. براوة عليكي يا بت.. فَرَجه قريب..

- وإزي العفريت؟

- يظهر عفريتة.

- كشفتي؟

- قالوا لي مادامت هادية.

قالت توحة:

- صح.. مادامت هادية تبقى بنت، ولو إنها ساعات تِخلف.

قالت بشاير:

- المهم الستر والسلامة.

فرحت بقمصان النوم ودعت للخواجة الطيب.. فرشت بعض القمصان الساتان ذات الألوان المبهجة، وسرعان ما أقبلت السيدات والبنات وتساهلت في الأسعار.. كانت تحب البيع حتى لو بمكسب بسيط أو حتى بدونه. تحب البنات وتتمنى لهن الفرح.

كان عليها أن تقف مكان أمها.. أمها اضطرت للوقوف على الفرش مكان أبيها الذي رحل بعد أن دخل السجن بسبب الحشيش ومات بسببه.. قلب أمها مهدد. قالت إن هذا المرض وراثة في العائلة فأمها ماتت به وعمها.

عرفت صلاح أمام مسجد قايتباي.. كانت عائدة مع أختها بعد أن أحضرتها من مدرسة الخليفة الابتدائية.. شكت أختها من الظمأ عدة مرات، فلما اقتربتا من المسجد اضطرت أن تسأل مَن فيه عن الماء.. كانت

هناك سقالات من خارج المسجد وداخله.. التقى بها صلاح.. طلبت منه الماء لأختها.. رد عليها بأدب:

- من عيني.

أحضر الماء على عجل.. وبينما أختها تشرب.. سألته:

- طولتوا في الترميم.

- قربنا.. احتاج ترميم خصوصًا بعد زلزال 1992.

- فين شغل زمان.

- البال كان رايق.

شربت هي الأخرى وشكرته ومضتا، خرج وراءهما صلاح.. لا تدري السر في أنها وقفت ونظرت وراءها كأن مسمارا شبك ذيل فستانها.. تعلقت العيون لحظات.

بعد وفاة أمها اضطرت كي تسبك العَفْلة بدلًا من الفضيحة أن تسافر إلى أقارب أمها في بركة السبع وتتغيب أسبوعًا ثم تعود إلى بيتها.. سربت خبر زواجها من ابن عمها الذي سافر إلى الإمارات.. ساعدتها مديحة صديقتها المقربة على ذلك.

لا يزال ولابد سيدوم حزنها على فراق أمها التي لم تعرف من الكبار غيرها وقد كانت كل شيء في حياتها. لأول مرة تكتشف أن الدنيا بدون الكبار حساء من الماء فقط. لا طعم لها ولا رائحة ولا أمان. الكبار حتى لو كان منهم بعض الأشرار أو التافهين أو الذين لا يملكون القدرة على تحمل المسئولية فهم ذوو نفع، ومجرد تردد أنفاسهم في صدورهم ظل ودفء وأسوار حماية وعزوة. عادت تتذكر حنان أمها الغريب. كانت تحس بها

حتى وهي في عز نومها، ومن الغرائب سؤالها عما جرى بينها وبين المدرس بعد أن تعود فتنكر وردة كل شيء، ولكنها في قرارة نفسها تدهش كيف علمت بتأنيب المدرس لها على نسيانها الواجب أو سوء خطها، وهي من سألتها عن صلاح قبل أن يشغل بالها:

- إيه حكايتك مع المهندس؟

ثفاجئها فتنكر:

- مهندس؟!

- المهندس اللي بيشتغل في جامع قايتباي.

- إنتي يمكن قاصدة واحدة غيري.

- وردة!

- نعم يا أم وردة.

- امش عدل ويايا حا تريحيني وترتاحي.

تدهش وردة كيف أنها توقظها وهي نائمة كي تسقيها وتكون بالفعل ظمآنة. الأمهات كائنات عجيبة وأمها في نظرها هي الأعجب.

طمأنت نفسها وهدأت من حزنها بأن ربنا رحيم.. هي ميتة مينة.. موتها قبل ما تعرف أرحم لها ولي.

حدثها عن قايتباي الذي حكم مصر 28 سنة، وكان اسمه الأشرف سيف الدين قايتباي، واحد من أشهر السلاطين المماليك.. قالت له إنها حصلت على الثانوية العامة وكانت تحب التاريخ جدا، وتجتذبها سير العظماء.. قال لها إن عهده كان أفضل العهود في بناء المساجد والمدارس والقلاع سواء في مصر أو في

سوريا، وكلها تتميز بالنقوش الجميلة والحُليَّات.. اصطحبها لتشاهد المسجد الفسيح وعمارته الرائعة. حدثها عن المنبر المُطعَّم بالصَّدف والسقف المنقوش والزجاج الملون والمشكاوات والمقرنصات والنوافذ وأركان تعليم القرآن والحديث والميضا الرخام.

قال لها إنهم كلفوه بالعمل في مسجد قايتباي، واشترك قبل ذلك في ترميم مسجد ابن طولون والمؤيد شيخ ومسجد برقوق ، وأنه يحب عمله جدًا لأنه يجمع بين علوم وفنون جميلة يحبها مثل الفنون والعمارة والتاريخ والسياسة والاجتماع، وقد تعود أن يقرأ كثيرًا عن كل أثر شارك في ترميمه.

ضحكت لما قال لها: الناس غير متنبهة إن من أهم مهن الدنيا مهنة المُرمم.

قالت: عمري ما سمعت عنها أصلًا.

سألها: إيه في الحياة مش عايز ترميم؟

حدقت فيه بدهشة: قصدك لما يكون بيت قديم وآيل للسقوط؟!

قال بثقة: مش بس البيوت.. كل شيء في الحياة.. الطب ترميم.. كتير من قرارات الدولة ترميم.. الأكل ترميم.. عمل الخير ترميم.. الحب نفسه ترميم للقلوب.. إصلاح الأجهزة.. الأجازات.. صلاة الجمعة.. التوفيق بين المتخاصمين ترميم.. ترقيع الملابس والأحذية.

تحس اليوم دبيبًا لم تحس به من قبل، لكنها تندمج مع حركة السوق، والبيع يلهيها.. قالت لها توحة:

- لازم تتحركي لغاية ما يجيي الفرج.. البنت لابد تتقلب وتعدِل نفسها.

قال صلاح لها يومًا، وكانا يجلسان على عشب حديقة قلعة محمد علي والأفق مفتوح، والدنيا تحت أقدامهما والجو بديع، والقلوب متأهبة للسعادة:

ـ باقي شهرين بس والشغل يخلص في قايتباي.. لازم نسلمه آخر مارس ومش هايسمحوا لي بالغياب ولا يوم.

ـ أنا حامل يا صلاح.. لازم تتصرف.

ـ مش هسيبك أبدا.. إنتي هدية من ربنا.

أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا وقالت:

ـ طمنتني.. ربنا يطمنك.

نظر إليها طويلًا وقد امتلأت عيونه بالحب والسعادة.. كانت كما تمنى فيمن يقع في حبها ويتزوجها. العيون السوداء والشعر الكثيف الفاحم والرموش الطويلة والعود الرشيق والملامح المنمنمة والبعد عن الثرثرة وسرعة التوتر. تحدث إلى نفسه ولا زالت عيونه معلقة بها: وردة طيبة. سوف تصبر على أي ظروف نتعرض لها. أحمدك يا رب. شباب كثير يقع في سوء الاختيار.. رزق كبير أرسله الله إليّ.. لا قيمة لأي مال أو مكانة إذا كانت الزوجة مزعجة ومنتجة للمشاكل. الزوجة الأصيلة تساعد في عبور الأنفاق المظلمة.

- مين شاغل بالك؟

- الجميل.

- بتحبني بجد يا صلاح.

- أكتر من روحي.

- احلف!

أمسك ذقنها التي يمتدحها دائمًا وقال:

- يللا بقى نسمي العيال.

- يعني مش ناوي تحلف.

- لا.

قامت عليه فعانقته وقبلته وأوشكت تعضه وهي تقول:

- لازم تحلف.

قال: لو جه ولد حا اسميه جمال.

قالت: غريبة.. أنا كمان حا اسميه جمال.

ـ ليه جمال؟

ـ على اسم أخويا اللي مات.. كان ناوي يبقى ظابط شرطة.

ـ أنا موافق على الاسم، بس مش علشان أخوكي.. سامحيني.

ـ عارفة.. عشان حبيب الملايين.

ـ ولو بنت؟

ـ ما فكرتش.

ـ أنا مجهز اسم حا يفرحك.

ـ يا ريت يعجبني ويكون أحسن من الأسماء اللى اخترتها.

ـ ندى الورد.

ـ الله يا صلاح.. اسم جميل قوي.

ـ ده اسم بنت من بنات قايتباي.. عجبني.

لم يرد أن يقول لها: إنها بنت من بنات زمن الغواية.. طرد الفكرة.

دخل صلاح قلبها يوم أن مرت مع أختها أمام المسجد، وفوجئت بالصغيرة تصطدم بالرصيف وتسقط، وبدا أنها موشكة على السقوط مرة أخرى، وإنها فاقدة لتوازنها.. جسمها النحيل يتهاوى.

أسرعت تنادي صلاح فخرج بلهفة وحمل البنت.. سارا معًا نحو البيت الذي يبعد نحو مائتي متر.. كان عليه أن يصعد بها جبل المقطم الذي تحط على هضابه بيوت الأباجية. صفوف من البيوت عن يمينه وشماله.

يمضيان على الطريق الجبلي الصاعد، تحاول وردة أن تأخذها منه فيرفض بشدة.. حتى وصلا.. قدمته لأمها، وعرض أن يحضر الطبيب لكنهما شكرتاه.. ألحت أمها في بقائه.. استأذن عائدًا إلى عمله، لتبدأ بعد ذلك المودة اليومية مع مرورها به ويفاجئها بالشيكولاتة لها وللطفلة ولأمها، وتحمل له أحيانًا من أمها طعامًا أو حلوى منزلية.

سألته مرة:

- إيه رأيك في الحب؟

- قولي انتي.

قالت وهي شبه شاردة: الحب في رأيي حرامي ونشال وديكتاتور.

- كل دول؟!

- وأكتر.

- إزاي؟

- الحب يفتح طريق العبودية.. يعني لو حبيب طلب من حبيبه أنه يدبحه على طول ينحني ويقدم رقبته. لو طلب منه يرمي نفسه في البحر يرمي حتى لو ما بيعرفش يعوم.

انطلق صلاح يضحك وهو يقول:

- يعني الحبيبين زي سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل.

- بس خلي بالك أنا في حالتنا أبقى إبراهيم وانت إسماعيل.

عاد يضحك بسعادة ويقول:

- افعلي ما تؤمرين، ستجدينني من الصابرين.

ضحكا وتعانقا وأحسا بمغمور السعادة يشملهما ويركب لهما أجنحة يُحلقان بها على صدر السماء ويتنفسان في هناء ورضا وأمل.

لام نفسه كثيرًا ولامت نفسها، كيف سمحا لنفسيهما أن يتمرغا على سجادة العواطف الناعمة حتى يبلغا الذروة. غابت عنه عدة أيام فذهب يسأل عنها.. كانت إلى جوار أختها المريضة وأمها في السوق.. تبادلا القُبل.. أول مرة شخص يلمسها وهو الحبيب الذي تهيم به، وهي الحبيبة روح حياته.. لم تكن تتصور أن قبلته إلى هذا الحد شهية، وإنها تكتب على روحها كلامًا

عجيبًا وتفعل بها فعل السحر.. فاستسلمت للقبلات التي سحبتها إلى الرمال المتحركة والقاع.

الجنين في بطنها يتقلب ويخبط، وهي تنشغل عنه بالناس والحركة والبيع وترتب البضاعة، وتبتسم في وجوه الزبائن وتشارك النسوة اختيار ما يليق بهن.

لا يغادر وعيها صلاح، ولا يفتأ يتحدث إليها وهي لا تشبع من كلامه.. حكى لها قصة أحمد بن طولون ومحاولته الاستقلال بحكم مصر وتجاهل الخلافة الإسلامية في بغداد، وقصة قطر الندى وزواجها العجيب.. حكى لها عن المماليك والقلعة ومحمد علي وجدد لها المعلومات التي درستها.. أدهشها، ولا يزال، حديثه عن طومان باي أشرف المماليك وأنبلهم والذي هزمه العثمانيون بالخيانة وشنقوه على باب زويلة لأنه قاومهم طويلًا ولم يستسلم بسهولة.

ها هو أمامها بوجهه المشرق ولسانه الحلو وبساطته وحنانه

لا يحكي لها فقط عن أعلام التاريخ الكبار، ولكنه يقص عليها حكايات النحاسين والخيامية والسروجية والمسافرخانة ومجرى العيون.. وتتمنى ألا يتوقف.. ذراعه على كتفها يمشيان وقد نسيا العالم.

تمنت لو يظهر من جديد ويمشيان معًا، ويتجولان في تلك الأحياء الشعبية القديمة التي لا تفقد بهاءها أبدا، ولها روائح غريبة مثل البخور والمسك.. حالة تتلبس كل

من يمر بها.. حالة ترمم الروح.. تنبهت إلى أنها أصبحت تتكلم مثله.

طبطبت على قلبها وقالت: لا أجمل في الدنيا من الحبيب الوفي.

(15)

احتاج أن يرتاح قليلًا وقد أحس أنه قطع نصف الطريق، ثم راجع نفسه مؤكدا أنه قطع الثلث فقط أو حتى الربع، لأن الموقف المحوري أو اللقاء المصيري لم يتم بعد.. ومودَّة ليست سهلة.. إنها قوية جسدًا وروحًا.. لا تسمح لأحد أن يلوي ذراعها ويرغمها على ما لا ترضاه.. فرسة عنيدة ولها جبروت وكرامة.

رأى ألّا يستخدم نصف الزجاجة الثاني، لكنها في جيبه إذا لزم الأمر وكذلك المنديل والمطواة.. الأعمال العظيمة ليست سهلة أو في متناول كل من يفكر فيها.. المشروعات الكبرى تتطلب فكرًا غير تقليدي وغير طبيعي.. لابد من الجنون والابتكار.. وهذا المشروع بطلته هذه الزجاجة.. تحسس جيبه ليطمئن عليها. وتذكر مندهشًا أنها فكرة عاصي.. ذلك الشاب الغامض الذي يقيم معهم كالشبح.. قال له -كاذبا بالطبع- إنه يريد أن يحصل على قرض من أمه وزوجها مقيم دائمًا في البيت لا يبرحه، ومستعد يشوف العمى ولا يشوف آدم، ولن يمكنه من نيل مراده.. دلَّه عاصي الشبح على هذه الزجاجة المخدرة.

لم ينس إغلاق باب الشقة من الداخل. مضى إلى حجرة النوم.. الجميلة النائمة عارية الفخذ اليسرى.. تعرَّف على السرير والدولاب.. النور يتسرب بشحوب برتقالي من النافذة، ونور هامس مختنق من سهراية الصالة.. أغلق باب الغرفة ثم تنهد من جديد لحشد العزم

والإقدام على أهم مرحلة.. إما النصر والحياة السعيدة، وإما الفضيحة والسجن، والموت أرحم.. هكذا فكر، لكنه قبل أن يبدأ الخطوة الأولى.. تصور أن النتائج يمكن أن تختلط، فليس شرطًا أن يعقب النصر سعادة.. لا يضمن تصرفات مودة، لقد خلقت من جنون.. حسم أمره بتأجيل النتائج.. التفكير إذا طال توقف العمل واقترب الفشل.

صعد إلى السرير بحذر الثعلب.. كان لابد أن يقدم القرابين ويعتذر.. انحنى على الفخذ المضيئة في شموخ.. فقبّلها بحنان ولهفة، كأنه يقول لها: حقك عليّ.

- مالوش لازمة اللي بتعمله.. عايزة أنام.. ريحة البوظة مقرفة.

شجعه الكلام الكاشف على أن يتقدم سعيدا باكتمال سلامته.. وتمنى أن يقبلها مرات ومرات والنهل من الرضاب.. لكن الفرصة غير سانحة.. الأفضل سرعة اجتياز البوابة والنفاذ مباشرة إلى السرداب.

تعثر قليلًا وفتش وعالج، وفوجئ بها تبتسم نصف ابتسامة ساخرة ملفوفة بليل النعاس. اضطرب خشية أن تستيقظ فتهدم المشروع أو تنسحب الطاقة الحساسة المتوترة كما كان يحدث في الماضي.

فزّت مودة من نومها فجأة مفتوحة العينين ناهضة نصف نهضة.. اضطربت تحته، وقبل أن تفتح فمها لتصرخ كانت المطواة على عنقها.. ظلت مفتوحة العينين إلى أقصاهما فتحة الرعب. مضت تطلق الأسئلة

الصامتة، بينما كان يهرس أسنانه إعلانًا عن الغضب واعتزام الإقدام على قتلها إذا تنفست.. أدركت أنه ليس آدم الأول.

أخيرًا نطقت وهي تقدحه بشرر عينيها:

ـ إنت مجنون.. ابعد أحسن أوديك في ستين داهية.

قال بهدوء وحسم:

ـ إنتي مراتي في السما والأرض.. لن يلمسك غيري ولو دبحتك ودبحته، اهدى خالص.

تهاوى جسدها مستسلمًا لا يحيي قدرة على المقاومة، ولا يرى مبررا لها.. اندهش لأن أعصابه المتوترة ورعبه الذي يخبط قلبه ويزلزل روحه من مودة والفضيحة والسجن وغضب الناس واستعراضهم الهش للثورة من أجل الشرف والانتقام من أجل الزوجة المحرمة.. كل هذا لم يؤثر على آلته التي صمدت في وجه الأعاصير، وظلت متمسكة بموقعها المتقدم على جبهة الأعداء الأحباب وبعد أن توقف عن تهديده، أولى شهوته التركيز الكافي حتى تحقق أهدافها من أجل المحبوبة الغالية.

رفع يده ببطء ليستكشف مدى الطاعة والإذعان، فهو يعرف أنها تُحسن المخادعة وهو لا يثق بها، لكنها كانت في أعمق أعماقها على ضفاف الرضا طلبًا للمتعة، التي لم تحسها يوما، فأسدلت ستائر جفونها، وبدا واضحًا أنها ستمرر التجربة حتى ولو بالإثم، وتؤجل مؤقتًا باب العتاب.

حط عليها يقبل خديها ورأسها وأنفها وشفتيها وعنقها العَرِم ثم بدأ يهبط بالقبل إلى ثدييها اللذين مزق من حولهما صدر الثوب، كأن الثوب كان يتأهب لذلك دون مقاومة أو عصيان، ومع ذلك ظلت المطواة في يده جاهزة لأي غدر.

تدريجيًا شاركته لهفته وردت على أشواقه بأفضل منها، أصبح لا يعنيها ما الذي حدث، وما الذي يمكن أن يحدث، وأين هي، وكيف عبر كل هذه البوابات، وكيف انتقل من السطح إلى العمق؟ كيف دخل وكيف فتح؟ ومن هذا الذي يرافقها الفراش الصابر والمعذب.. هل تراه الزوج الأول، وماذا حدث له، وماذا حدث للدنيا؟ مطر من الأسئلة يهطل دون أن يبلل أو يهدم، ولكنه لا شك يروي ظمأ كل الأرض.

أخيرًا.. همد وتمدد فوقها.. عانقها وعانقته.. لم يتوقف عن تقبيلها والنهل من آبارها المتدفقة برحيق العسل. مرَّغ رأسه في شعرها واستنشق عبقه الذي بدا مثل رائحة الأعشاب البرية الجافة وهي فوق لهب هامس شمعة ساهرة.. مزيج من روائح النعناع والريحان والتمرحنة والقرفة والمسك.. أيقن أنها رائحة جسدها الذي انزرع طويلًا في الصحراء حتى تصبَّر وتجفف.

بعد أن عرَّفها بنفسه كاشفًا عن شخصية جديدة وباهرة.. قالت له:

ـ امشي بسرعة. رضا زمانه جاي. مش عايزة حد يشوفك.

- ماشي كلامك. بس ولا كلمة لمخلوق لحد ما نتصرف. انتي مراتي، ولو رفضت وعاكستيني حا اقتلك انتي وعيلتك وبعدها أنتحر.

- مالوش لازمة الكلام ده.

- عشان نبقى على نور.. أنا صبرت كتير وقد أعذر من أنذر.

ظلت متعلقة به رغم إلحاحها عليه أن يغادرها على عجل، وظلا على عناق والتحام واشتباك بالقبل حتى بعد باب الشقة وعلى السلالم وحتى باب الشارع، ثم عبرت فوق الجثة المكوَّمة في الصالة ودخلت وتمددت في سريرها المضيء بالفرح والنشوة.

أحست أنها مستيقظة وذهنها صاحٍ، وقلبها يرقص، وروحها تتجول في أعماقها مثل عروس تركب فرسها، وتمر على أهل قريتها والناس تلقي عليها الورد. قامت بكسل لكن بعزم ورضا. فكت ضفاير شعرها الطويل. تحسست أعضاءها بسعادة وتمنَّت لو بقي آدم قليلًا حتى يستحمَّا معًا. دنت من المرآة. تأملت وجهها المتوهج وقلبت شفتيها المحمرتين كحبتي فراولة طازجة. دارت كفَّاها على ثدييها. قلبتهما وسألتهما أسئلة غامضة. تنهدت وأدركت أن الحياة الآن مختلفة والسعادة الحقيقية المركزة تطرق الباب برهافة.

أخيرًا ضحكت الدنيا وبعثت بنسائمها تداعب خدودها التي تخشبت. سخنت ماء في قدر من الألومنيوم وأخرجت صابونة فرنسية احتفظت بها منذ ثلاثة

أعوام، كانت تعتزم أن تستحم بها يوم أن تزوجت آدم، لكن الظروف لم تسمح بالدخلة ولا بالحمام. أغرقت بالصابون فواح العطر جسدها. لمَّا انتهت التفت بالباشكير، وعلى رأسها تاج كبير شكلته الفوطة الزرقاء المنقوشة بالورود، وجلست أمام التسريحة عازمة على التزين فتذكرت رضا. أسرعت تلبس جلبابها الذي كانت ترتديه قبل هجوم آدم وفكت تاج العروس. حاولت أن تمحو من روحها كل آثار الفرح.. اجتهدت بأقصى ما تستطيع كي تجفف شعرها وتلمه في تربيعة. فتحت الباب وألقت نظرة على الحانوتي. وجدته بغلًا مكومًا في الردهة مثل جوال قطن. فقالت: «نصيبي حانوتي يدفن الميتين وأنا لسة ما دخلتش دنيا.. أنا وهو زي المية والزيت. الحمدلله حا ترحل الأيام السودة».

عادت تنظر للحانوتي. بدا لها مثل زورق كبير مقلوب على الشاطئ وأكبر كثيرًا من المعتاد. تصورت أنه مات وانتفخ.. فكرت أن توقظه ليدخل السرير ويرتاح بالداخل لكنها توجست من العواقب فسوف يسأل كثيرًا وهو لحوح.. سألت نفسها عن موقفها إذا لم توقظه حتى الصباح وتدخل حجرتها وتخلد للنوم. سوف تنام بعد أن تخدر بدنها وبسبب الحمام الساخن و«الدخلة » المسروقة. قارنت الموقف في الحالتين فرأت أن تبقى في سريرها وحدها تحلم وتستطعم ما جرى حتى لو زارتها الأحلام. هكذا فضلت النوم تاركة الحانوتي ملقى كبغل السّرجة خارج الغرفة ولتكن النتيجة ما تكون،

يخامرها اطمئنان مشكوك فيه بأن الصباح سيتولى تسوية الأمور.

أما آدم فامتلأت أحاسيسه بوعي جنسي جديد، لم يدركه على وجهه الصحيح والعميق عندما كان زوجها. لم تبلغ به الشهوة سابقًا كل هذا الجمال وتلك اللذائذ، بل لم تكن ثمة رغبة إلا ما ينتج عن ملامسة الحرير والقطيفة أو النوم على فراش طري مريح.. حالة غريبة ومدهشة تتلبسه وتفتح له آفاقًا جديدة في الجسد والنفس على السواء.. تنهد وهو يقول في بهجة أسطورية: «دار الحجر ورجع مكانه».

أحس أن مودَّة آلة موسيقية، وأن الأنغام لن تخرج منها دون أصابعه.. تذكر أن عاصي زميله في السكن هو من قال: «كن شهيًّا ترى الوجود شهيًّا.. كن جاهزًا بأدواتك لا بأحلامك ولن ينفعك الكلام».

لم تعد طرية وناعمة فقط بل قادرة على أن تُسْكره.. أدرك الآن فقط السر في أن الكهرباء تحتاج إلى سلك أرضي وسلك هوائي.. كان يريدها دائمًا زوجة جميلة وحنونًا وماهرة وشجاعة، أما بعد اكتشاف اللذة الجسدية التي ضربته في نافوخه وفي كل كيانه فإنه لن يتركها ثانية واحدة تغيب عن عينيه أو عن أحضانه المحرومة، ولو فقد عقله وامتشق سيفًا ومضى يقطع الرءوس التي تحول بينه وبينها. تذكر الآن فقط كلام المفتح عند تقديم القرآن للنساء على كل الشهوات التي زينها للناس.

مضى عقله يلعب مع روحه، ويتدافعان، ويمرحان، ويفرحان بالرزق الجديد الذي سيغمرهما حتى نهاية العمر.. مضى يركض ويرقص كطفل في يوم عيد.. سعيد بجلبابه الجديد وقد امتلأت جيوبه بالنقود.

في اليوم التالي، طلبت مودة من رضا الطلاق فانقلبت سحنته وقال:

- لمًا تشوفي حلمة ودنك.

كلمت أباها وأقنعته بأنه لا جدوى منه.. تحدث إلى رضا فقال له:

- لو انطبقت السماء على الأرض.

بلغ ذلك آدم فأسقط في يده..الفأر انغلقت عليه المصيدة والجبن والقشدة خارجها. لم يجد فتحة صغيرة في حجم أذنه توقظ في قلبه الأمل في خروج صعب..المشكلة أنه لا يستطيع أن يُشرك معه أحدًا.ولا يكشف روعة ما جرى لمخلوق. سر الأسرار سيموت معه. فما الحل. ليس أمامه إلا أن ينهض بكامل المشروع، فكيف يمكن أن يحل هذه العقدة؟ صحيح أن جسد مودة هو عقدة العقد التي حيرت الأزواج وأربكت الدنيا، لكن آدم عثر على المفتاح، وما زالت المصيدة الملعونة تغلق عليه كل المنافذ، وقد قبضت على رقبته وقلبه وحياته كلها، والحانوتي ليس سهلًا. في مثل حجم آدم مرتين وقلبه قلب وحش البراري وصوته صوت سفينة ووجهه بلا أي غطاء من حياء، وليس من طباعه أن يكبر لأحد إذا فكر آدم يستعين بالشيخ زاهر أو بالخواجة أو

بأي رجل له في السوق مقام.. لم يتوقف عقله دقيقة واحدة عن التفكير والبحث ورسم الخطط حتى منتصف الليل حين استقر تمامًا على سبيل الخلاص.حل خرافي سيرضي جميع الأطراف حتى رضا نفسه.. عندما قفز الحل إلى عقله أضاءت دماغه والدنيا من حوله فرقص.

راجع الخطة عدة مرات فلم يعثر فيها على ثقب تعبره نقطة الماء أو يمر منه الدبوس.

مضى إلى جلسة البوظة، واندفع وهو يمسح دموعه نحو رضا الذي كان يجلس كعادته على مقعدين حتى أن حمزة القهوجي كان يقول له ضاحكًا: «لازم تدفع تمن الطلبات مرتين».

قال آدم:

- أنا وقعت من السما وأنت استلقتني.

رفع الحانوتي عينه الوحيدة ليرى محدثه، ثم ضحك وقال:

ـ كويس إن مش أنا اللي وقعت.. كنت حا تستلقاني إزاي؟!

ـ ابن عمي مات دلوقتي وهو غريب وعايزين نتاويه في حتة.

ـ خليه للصبح.

مد يده بخمسين جنيها:

ـ دلوقتي.

ـ كمان خمسين.

ـ بعد الدفن.

تدحرج رضا أمام آدم الذي كان يعيد ترتيب خطته ويطمئن لسلامتها.. مال رضا على سبيل فأخذ يغرف الماء ويضرب وجهه حتى وعي ما حوله.. تابع سيره مخترقًا الأزقة التي تفصل بين المقابر حتى توقف عند إحداها، بينما كان آدم يواصل تقييم الخطة وتحديد الوسيلة واللحظة الفارقة، ولما انحنى الحانوتي ليفتح قفل المقبرة المعلق ببابها المنخفض، حط عليه آدم ومر ضاغطًا بمطواته على رقبته حتى المنتصف، وسقط الحانوتي مرتطمًا برأسه في الباب الحديدي للمقبرة.. مسح آدم في جلباب الميت مطواته، وألهمه تفكيره الشيطاني أن يفتح المقبرة ويلقي فيها المطواة، لكنه ارتعد لذلك الخاطر الملعون، وأسقطها في صندوق قمامة كبير على بعد حوالي مئتي متر، دافسًا إياها في أعماق كرنبة ذابلة. ورضا يخور كبقرة وينزف.

أخذ آدم يردد بتوتر شديد دعاءه لله كي يكمل جميله ويستره، وألا يمر أحد ويشهد مصرع الضحية.

انتظر عليه وقلبه يدق ضلوعه وصدره، وكل جسده، وكل أبواب السماء حتى خمد الجسد المنحور، وغرقت الأرض أمام عدة مقابر بالدماء. لم يضيع وقتًا وأسرع يفتح المقبرة ثم دفعه إلى داخلها وأغلق عليه بابها الحديدي بالقفل. وألهمه عقله أن ينثر التراب على الدماء وبحث عما يغترف به حتى يداري حياة كل أثر للراحل السمين. وما أن اطمأن للتغطية الماحية لكل دليل حتى

انطلقت ساقاه بخفة تحمله إلى بيته حيث ارتمى على سريره وهو في أسوأ حالاته: رعبًا وعجزًا وتوترًا، وشرع يسأل ذاكرته عن سلامة الطريق، وخلوه من كل علامة تشير إليه.. كان عليه أن يتظاهر بالنوم، كلما صدرت حركة من أحد سكان الغرفة وأن يحبك النوم بالغطيط الكاذب.

عاد يبحث فيما جرى عن آثار أقدامه وأياديه.. عن كلامه مع من لقيهم، وما تبقى من أنفاسه أو رائحته، وما علق بملابسه أو حذائه، ثم دافع عن نفسه.. ماذا كان عليَّ أن أفعل وقد رفض رضا تطليقها وأنا.. أنا كان يجب أن أنالها؟ هي لي وأنا لها.. ياه.. كم فرحت بي وفرحت بها.. وتكرر على خاطره مشهدهما وهو يغادر غرفتها مصحوبًا بها وهي لا تُفلته، وتكاد تطلب منه أن يواقعها على كل درجة سلم.. لا.. كان لابد أن يحدث هذا أو أنتحر.. مودّة هي الحياة.. وأنا بشر.. بشر يا ناس.. بشر.

(16)

أحسَّت فجأة أن روحها تكاد تنسحب منها.. صرخت. تداعى جسمها رغمًا عنها.. لمحتها نجاة ابنة توحة.. اندفعت تنادي أمها.. في لحظات كانت توحة المثقلة باللحم والحب تدخل بحجرها تحت رأس وردة وتطلب منها التحمل وذكر الله.. قالت لها: «الخبط هبط لفمُ الرحم».

رفعت توحة رأسها إلى السوق لتستطلع المشهد.. آيات القرآن تتردد في الفضاء قبل صلاة الجمعة.. تتسلل موجات الرضا إلى النفوس مع الكلمات المقدسة.. يد الله كانت تحلق في الفضاء اللانهائي قريبا من السموات توزع الرحمة والأمل. فكرت توحة.. يوم مبارك بإذن الله.. البنت بكرية.. يجب أن نلجأ للمستشفى، الزحام يملأ المكان ويسد عين الشمس.. جست بيدها أسفل بطن وردة.. أيقنت أنها ستلد في الطريق.. ظهرت بشاير.. طلبت منها توحة تسخين حلة ماء على وابورها.. أسرعت بشاير وأرسلت بدلًا منها نجاة.. فكرت توحة في رشدي وفرج وحكيم تجار الموبيليا القديمة.. هل تحملها إليهم؟ المسافة كبيرة، والموضوع حساس. «فيه بهدلة ومية ودم وخلاص وحكاية.. ليه نحرج الناس».

أخذت تتلفت على فرش كبير، وجدته إلى جوارها مباشرة.. فرش شفيق بائع عجلات الأطفال.. جرَّت وردة

تحته.. وردة فاقدة الوعي تقريبًا. صفعتها توحة على خديها عدة مرات برفق وهي تقول:

ـ احزقي. احزقي على طول.

ردت وردة بوهن شديد:

ـ مش قادرة.. إنت فين يا صلاح؟

ـ مش وقته.. احزقي جامد وقولي يا رب.

ـ يا رب.. ابعت صلاح وساعدني.

عندما دخلت توحة تحت الفرش الكبير وهي تسند وردة لاحظت أن المكان يشبه الخيمة.. رضيت عنه فسوف يتحرك الجميع بسهولة ودون تخبط. طلبت من ابن العجلاتي أن يفرش ملاءة كي يغطي بها الجانب العاري.. طلبت وسادة.. حضرت في الحال ثلاث.. طلبت ملاءة وجدت ملاءتين.. طلبت منديلًا وصل ثلاثة، دست أحدها في فم وردة، وقالت الكلمة الوحيدة بطلة اللحظة:

- احزقي.

أيادٍ كثيرة من وراء الملاءات تمتد بالمطلوب، وأيادٍ من تحتها تتسلم.. وصل كل المطلوب ووصلت النسوة ولم يبق غير الفرج. الفرج في مثل هذه الأحوال عند المؤمنين بالذات قريب. الفرج يهبط عند الحاجة من السماء مباشرة مصحوبا بعطف الله وكرمه.

قبل أن ينتهي العمل في مسجد قايتباي بأسبوع وحوالي الساعة الرابعة عصرا خرج صلاح من عمله إلى الشارع. تمشى قليلًا نحو محطة الأتوبيس، وقبل أن

يصل المحطة هجمت عليه سيارة فخمة جدًا فأوقعته وهرست عظام رجليه.. الساقين والفخذين، اضطرت السيارة المسرعة للتوقف لأن السائقة الجميلة فوجئت بأن الأتوبيس أمامها يسد الطريق. أسرع إليها الجمهور صارخين فيها، قالت لهم: «بدل الثورة دي شيلوه بسرعة.. حطوه في العربية علشان أوديه المستشفى».

اهتم بعضهم بتسجيل رقم السيارة وانحنى الآخرون فسحبوا صلاح من تحت السيارة وحملوه، وقبل أن يفتحوا الباب كانت السائقة الشابة قد طارت بعد أن تحرك الأتوبيس، وصلاح في غيبوبة كاملة.

نقلوه إلى المستشفى وجاء الضابط ومساعده للتحقيق.. سلمهم الشهود بيانات السيارة كاملة، حضر أمين الشرطة إلى المستشفى في اليوم التالي، وقال لأهل صلاح إن الأرقام غير صحيحة وغير موجودة بالمرور. انفتحت العيون من الدهشة وتجمدت النظرات والألسنة. لم تتحرك غير الأكف تضرب بعضها وتتعجب للزمان السَّوْ الذي غاب عن رجاله الضمير والإحساس.

أثَّر ارتطام رأس صلاح بالرصيف على وعيه، وواصل الأطباء علاجه بوضع المسامير والشرائح والتجبيس مرة بعد أخرى، وهو يكاد لا يدري من أمره شيئًا.

ابن خاله ضابط في شرطة السياحة له صديق رائد في شرطة المرور طلب منه البحث عن الأرقام.. قال له بعد البحث إن الأرقام رفعت تمامًا من القوائم وتم

تركيب لوحات جديدة للسيارة التي ضربت صلاح ولا تشغلوا بالكم.. الموضوع انتهى.

انتظرت وردة طويلًا وبطنها لم يكن ينتظر ولا الجنين.. واصلت بقدر ما يتاح الوقت السؤال عن صلاح.. العمل انتهى في المسجد.. إدارات وزارة الآثار كثيرة وفي كل مكان.. لا تعرف غير أن اسمه صلاح. تبين بعد عشرات الأسئلة أنه ليس موظفًا في هيئة الآثار، ولكنه إخصائي ترميم في مكتب هندسي، والمكتب مكلف من الباطن لتنفيذ العملية، أما موظفو الحكومة فعليهم أن يحضروا إلى مكاتبهم كل آخر شهر ليقبضوا مرتباتهم والمزايا والجهد الزائد والحوافز.

كل شيء كان ضبابيًا والرؤية غائمة، والذاكرة تخلو من المعالم.. كل ما فيها يفر.. تدريجيًا ومع عمليات الترميم المتواصلة بدأ صلاح يسترد وعيه ويتنبه لمن حوله ويسأل عن وردة، ولا أحد يعرف من هي وردة.. يعرف بيتها الذي زارها فيه عدة مرات سواء في حياة أمها أو بعدها.

أخيرًا وعلى عكازين يحملانه من تحت إبطيه استطاع أن يذهب بسيارة أجرة إلى الأباجية.. صعدت به السيارة حتى بيت وردة، لم يجدها.. سأل عنها.. أنبأه بائع في كشك مجاور أنها في السوق، حملته السيارة إلى بدايات السوق ولم تتقدم.. مضى ينقل خطوة بعد خطوة ويحاول تذكر اسم سيدة كانت تجاورها وتحدثت عنها كثيرًا.. حكت له عن المرأة الرجل.. المرأة

الصديقة الكريمة الحنون.. المرأة الأم والحضن والأمان.. تعرض كثيرًا للدفع من مسرعين لم يقصدوا لمسه، أوشك الزحام أن يتسبب في سقوطه عدة مرات.

تذكر أنها كانت تبيع الشيلان والطرح.. على مهله سار يدقق في البضاعة المعروضة وفي وجوه البائعات، ورأسه لا يكف عن محاولة التقاط المفتاح.. لمح فتاة تبيع الشيلان والطرح وقمصان النوم الحريمي.. كانت نجاة واقفة تبيع بضاعة وردة. تقدم منها ليسألها عن فتاة اسمها وردة تبيع مثلها الشيلان والطرح. قبل أن يسأل وبدون أية مقدمات أو مساعدة تذكر اسم المعلمة توحة.. فسألها عن توحة، وأرجأ سؤاله عن وردة.. خشي ألا تعرف وردته.

قالت: في مشوار صغير.. أي خدمة؟

قال: لا.. كنت عايز أسألها عن...

نبتت في خاطر نجاة نبتة صغيرة كما الياسمين، فاح عطرها على وجهها أَلِقًا.

كيف عرفت نجاة أنه هو.. هل لأن وردة تحدثت معها عنه ووصفته تمامًا.. أم أنه مجرد إحساس عابر أرادت الأقدار أن ترميه كالرهان على مائدة اللحظة المحمومة، وكم للأقدار من علامات وأسباب وألعاب!

قمعت نجاة سؤالها رافضة أن يكون هو من توقعت فهو أولًا يمشي على عكازين يستقران تحت كتفيه ولم تشر وردة إلى ذلك. لكنها تحدت نفسها وعادت تستدعي

فراستها.. ابتسمت وسألته في شك يتأهب للفرح بالاكتشاف الذي تثق في صوابه:

ـ إنت صلاح؟

تعجب صلاح واهتز في وقفته.. كيف يمكن أن تعرفه فتاة بين مليون شخص في السوق.. عجز عن النطق.. اضطر أن يهز رأسه مؤكدًا أنه هو.. انقشع فجأة الغمام الذي كان يغلف الدنيا. قالت نجاة:

- جيت في معادك بالتمام.

انحنت نجاة ورفعت الملاءة، فاجأها صراخ الوليدة.

احمر وجهها وصرخت وانتفضت واقفة تهلل ثم قالت في سعادة غامرة:

ـ ألف مبروك.. وشك حلو.

فرت الدموع من عيني صلاح وكاد يسقط، سقط بالفعل أحد العكازين.. همس:

ـ ندى الورد.

أحس أنه لا يردد الاسم وإنما يشمه ويقبله ويعانقه.. مضى يشرب من عبير السعادة الذي شرع في ملامسة روحه.

أسرع إليه شاب بكرسي، جلس وسأل نجاة:

ـ ممكن أدخل؟

انحنت نجاة ورفعت الملاءة.. حدَّقت في وردة الغارقة في العرق والذبول، بدا واضحًا عليها الإنهاك بسبب الجهد الذي تطلبه خروج روح من روح عبر مضيق الحياة المذعور.

قالت بتردد فرحان: فيه واحد عايز يشوفك.

لم تستطع وردة أن تجيب ولا أن تخمن.

صرخت فيها توحة:

ـ واحد مين يا بت؟! إنت مجنونة.

نهضت نجاة وأنزلت الملاءة.. قالت لصلاح:

ـ استريح شوية.. هات له ينسون يا شوقي.

أخذ يتلفت حواليه ويبلل ريقه الجاف، ويرفع وجهه إلى السماء ويتمتم بشكر الله ويمنع دموعه.

جاءه شوقي بالينسون.. طلب منه شراء باقة ورد من بائعة الورد القريبة.

رفعت نجاة الملاءة وانحنت تطلب الإذن.

ـ الأستاذ صلاح عايز يدخل.

هبت وردة برأسها كأنها كانت تحلم، واستيقظت فجأة وصدرها يعلو تحت خفقان قلبها:

ـ مين يا نجاة.. مين؟

ـ حبيب القلب يا وردة.

اهتز جسد وردة الغارق في العرق وازداد وجهها اصفرارًا، بينما انهمرت الدموع من عيونها ومن جسمها كله، دبت فيها بعض العافية.. التفتت إلى توحة وقالت:

ـ والنبي يا توحة أشوفه.

ـ مش وقته.

كانت الخيمة ممتلئة بالحلل والطشوت والمياه والدم والنساء.. بسرعة جهزوا المكان وأخلوه مما لا لزوم له.

ما زالت وردة تتوسل:

ـ أشوفه يا توحة.. سايقة عليكي النبي.

ـ هاتيه يا نجاة علشان نرتاح من مُحن النسوان.

ـ القلب وما يريد يا توحة.

بسرعة كانت توحة، وهي تبكي بحرارة ويرتج جسدها، قد سوَّت شعر وردة ومسحت عرقها ومدت يدها لها كوب الماء بالسكر.

رفع صلاح بحذر وتردد طرف الملاءة وقال:

ـ حمد لله على السلامة.

لاحظت وردة العكازين فانفرطت في البكاء.. ارتبك صلاح وفهم سر بكائها.. مد يده بالورد.. قال بصعوبة ودموعه تسيل على الجاكيت القطيفة الكموني:

ـ وحشتينى يا وردة.. سامحيني.

انسحب ليداري دموعه، وتلفت حواليه، سأله العجلاتي:

ـ طلباتك يا فندي.

ـ عايز عربية تروحنا أنا ومراتي.

ـ مراتك!

ـ وردة.

ـ حالًا يا فندي.

ركبت نجاة معهما السيارة حاملة ندى الورد.. في أحضان صلاح دخلت وردة بكل كيانها وأعصابها وأحلامها. كانت ملفوفة في بطانية مرسوم عليها حصان يركض. تنفست بعمق ورحبت بالحياة لأنها، الآن وبعد زمن عصيب، سكنت أحضان صلاح ويضم بدنها

المرتعد بذراعيه، بينما تنام بعيون مفتوحة وعبق باقة الورد تحت خدها، تميل عليها بين الحين والحين تشمها وتغمض عينيها لتحتفظ بطعم الهناء الذي وصل أخيرًا ليغلق كتاب الحزن.

(17)

ذهب الجميع إلى العنوان الذي يسمعون عنه لأول مرة. كان الكل يحسب أنه يقيم في بيت كبيوتهم، ففوجئوا بأن جثمانه يخرج من فيلا فخمة أمامها عشرات السيارات الفارهة، وقد سدَّ الشارع العريض عددٌ كبيرٌ من الرجال الذين يرتدون الأسود الفاخر والنظارات السوداء الثمينة.

عندما علم المعزون من رجال السوق أن العمارات الأربع العالية كناطحات السحاب ملكه وأولاده.. أيقنوا أنهم جاءوا إلى ميت غير ميتهم، رجلهم كان مثلهم على فيض الكريم.. سألوا على استحياء من لا يعرفونهم فتأكدوا أنه الخواجة.. ميتهم.. التفوا بمن كانوا يكلفونهم بالأعمال ويحاسبونهم حساب الملكين، وعلموا أنهم مستخدمون لديه وقد كانوا يظنون أن رجال السوق بمن فيهم الخواجة تابعون لبعض هؤلاء السادة.. تبين لهم أن الخواجة اسمه الأصلي محمد جرجس القادم من سوهاج، وهو المسجى الآن في الخشبة المحمولة على الأعناق إلى القبر حيث الاستراحة المؤقتة تمهيدا للسكنى في دار الحق الأبدية، أيًّا كان نوعها حيث يتم التوزيع طبقًا لحسابات البصير العليم والغفور الرحيم.

ها هم يحملون جثمان الرجل الذي يفتح نصف بيوت رجال السوق ونسائه ويطعم ما لا يقل عن عشرة آلاف فرد وسيظل يطعمهم حتى بعد رحيله.. لم يكونوا

يعلمون، وكيف لهم أن يعلموا وقد تم بناء هذه المؤسسة بشكل محكم وعمل متواصل، وكل من أدارها كان مثله قليل الكلام.. آن أن يرحل فهذا حال الدنيا، ولكل أجل كتاب.. يرحل دون أن يعلم أن من بين من يعملون لديه رجال من بلدته وبعضهم من أقربائه، بل لم يعلم وهم لم يعلموا أن بعضَ من عملوا في السوق وتحت مظلته من طالبي دمه، وعذَّبهم طويلًا السؤال عنه، وظل السؤال يعلو كل يوم حتى فاق برج القاهرة، وغاص في الأرض والقلوب النازفة حتى من أهله إلى أعمق الأعماق، لكنه الوحيد في العالم -طبعًا بعد الله- الذي يعرف أن حماية حياته وسره واستمراره لا يكفلها إلا هذا البناء المحكم.. البناء المسمَّى.. محمد جرجس الشهايبي الشهير بالخواجة، والذي كان مؤقتًا يحمل اسم محمود راضي، وأحيانا ناصر العبد وضرغام ورشدان وغيرها من الأسماء كوسيلة لاتقاء النهاية الغامضة.

نقل الرجل ميراثه الفكري والمادي والعملي والإنساني إلى الذرية التي لا يكاد يحصرها حصر.. فهل مازالت هناك أية كلمة من سطور الثأر يمكن أن يقرأها أحد في كتاب العائلة، ويتسلل نهر الدم إلى الأبناء والأحفاد، وهل يطول أحفاد الأحفاد.. أم تراه جف مثل كثير من الأنهار؟!!

لا أحد يعلم لأن الدنيا تغيرت وتزايد السكان بصورة غريبة وملغزة. وسافر الكثيرون من الأولاد والأحفاد إلى دول العالم المختلفة جريًا وراء المصالح والتعليم

والمعرفة والاكتشاف وربما بسبب الحب والحرب والهروب. لم تعد ملامح الفروع هي ملامح الأصول فقد تزوج السمر من البيض ومن الصفر والحمر والزنوج. من الإيطاليات والأوكرانيات والإسبانيات والمصريات والسوريات واللبنانيات واليمنيات ومن الفلسطينيات والأمريكيات وساكنات جزر القمر ومايوركا وكريت ومالطة وبريونى، ودارت الدائرة فتزوج بعض الشباب من مسيحيات وبوذيات وعابدات الشمس والبقر والنار وممن لا دين لهن ولا ملة، لكن المؤكد أن الجميع أبناء الله.

(18)

أكثر من عشرة رجال معظمهم من الشباب الصعايدة في جلابيب غليظة معتمة وعمائم ثقيلة ومتراكبة. حول أعناقهم كوفيات بنية تغطي الوجوه ولا تسمح إلا بالعيون المطلقة للشرر. وصلوا فيلا محمد جرجس محملة سيارتهم نصف النقل بأسلحة تكفي لقتل سكان حي كامل سيفرغونها هنا في هذه الفيلا.. كسروا بوابة الفيلا وأسرعوا بالانتشار في كل الغرف، وأغرقوا كل الأثاث بأمطار الرصاص المنهمر. لم يجدوا بشرًا لكنهم ظلوا يطلقون الرصاص في كل ركن وكل الدواليب وعلى كل الأسرَّة.. كان الاعتقاد راسخًا لديهم أنهم بعد أن لاحقوا، وآباؤهم وأجدادهم، القاتلَ طوال ثمانين عامًا قد تمكنوا أخيرًا من معرفة مقره، وعليهم أن يقتلوه هو وكل ذويه وذريته وبيته وكلابه وأثاثه والأرض التي يمشي عليها حتى تقر عيون جميع الراحلين الذين فاتتهم لحظة الثأر المقدس. لهم الآن أن يرضوا عن أحفادهم، وأن يسمحوا بقبول التعازي فيمن فقدوه الذي ظلت دماؤه حرامًا على مدى الزمان، واليوم تهدأ القلوب في الصدور وترتفع رؤوس كل الجهاينة، ومن حق كل رجل، وطفلنا رجل، أن يتنفس ويخترق الشوارع بعزة وكبرياء.

فؤاد قنديل في سطور

ولد في الخامس من أكتوبر عام 1944 بحي مصر الجديدة لأسرة تنتمي لمدينة بنها محافظة القليوبية. حاصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة وعلم النفس من جامعة القاهرة.

بدأ مسيرته الأدبية في منتصف الستينيات ونشر القصص والمقالات في معظم المجلات والصحف المصرية والعربية.

سافر على نفقته الخاصة إلى عشرين دولة من اليابان والصين إلى أمريكا للتحصيل الثقافي والمعرفي.

صدرت له الأعمال التالية:

أولًا: الرواية (20)

• الســـقـف • الناب الأزرق

• أشجـان • عشق الأخرس

• شفيقة وسرها الباتع • موسم العنف الجميل

• عصر واوا • بذور الغواية

• حكمة العائلة المجنونة • الحمامة البرية

• روح محبات • رتق الشراع

• قبلة الحياة • أبقى الباب مفتوحا

• كسبان حتة • المفتون

• نساء وألغام • رجل الغابة الوحيد

• دولة العقرب • الفاتنة تستحق المخاطرة

ثانيـا: مجموعات القصص القصيرة (14)

• عقدة النساء • كلام الليل

• العجز • عسل الشمس

• شدو البلابل والكبرياء • الغندورة

• زهرة البستان • قناديل

• رائحة الوداع • سوق الجمعة

• حدثني عن البنات • ميلاد في التحرير

• الحب على كرسي متحرك • رسائل حب مرعبة

ثالثا: الدراســـات: (13)

- شيخ النقاد «محمد مندور»
- عاشق الحرية «إحسان عبد القدوس»
- كاتب العربية الأول «نجيب محفوظ»
- أدب الرحلة في التراث العربي
- رؤية تمهيدية لرعاية الموهوبين
- كيف تختار زوجتك؟
- صناعة التقدم في مصر
- فن كتابة القصة
- ثقافة المصريين
- تجليات القلب المضيء
- صهيل الكتابة
- صلاح جاهين روح مصر الشاعرة
- طيور الجمال والحرية

رابعا: روايات وقصص للأطفال (7)

- مغامرة في الهرم - مدينة الدخان
- التوأم الرائع - الساحرة والملك

• عقدة النساء • كلام الليل

• العجز • عسل الشمس

• شدو البلابل والكبرياء • الغندورة

• زهرة البستان • قناديل

• رائحة الوداع • سوق الجمعة

• حدثني عن البنات • ميلاد في التحرير

• الحب على كرسي متحرك • رسائل حب مرعبة

ثالثا: الدراســـات: (13)

- شيخ النقاد «محمد مندور»
- عاشق الحرية «إحسان عبد القدوس»
- كاتب العربية الأول «نجيب محفوظ»
- أدب الرحلة في التراث العربي
- رؤية تمهيدية لرعاية الموهوبين
- كيف تختار زوجتك؟
- صناعة التقدم في مصر
- فن كتابة القصة
- ثقافة المصريين
- تجليات القلب المضيء
- صهيل الكتابة
- صلاح جاهين روح مصر الشاعرة
- طيور الجمال والحرية

رابعا: روايات وقصص للأطفال (7)

- مغامرة في الهرم - مدينة الدخان
- التوأم الرائع - الساحرة والملك

- ذقن الباشا.. خط أحمر

- الولد الذهبي «مجموعة»

- تحفة النظار وعجائب الأسفار لابن بطوطة (تبسيط)

خامسا: عشرات المقالات الثقافية والسياسية والاجتماعية

- عن أحوال مصر والعالم العربي

سادسًا: مشـاركات ثقافيـــة

- عضو المجالس القومية المتخصصة

- عضو مجلس إدارة نادي القلم الدولي

- عضو المجلس الأعلى للثقافة

سابعًا: رسائل علمية عن الكاتب

- حصل ثلاثة باحثين على درجة الدكتوراه عن أدبه القصصي والروائي (منها واحدة بالانجليزية).

- حصل ستة باحثين على درجة الماجستير عن أدبه الروائي والقصصي.

- صدرت عن إبداعاته نحو مائة وعشرين مقالة نقدية.

ثامنًا: التقـدير والتـكريـــم

- ورد اسمه مع بيان بأعماله في موسوعة «الشخصيات القومية البارزة» إصدار الهيئة العامة للاستعلامات

- ورد اسمه مع بيان بأعماله في موسوعة «أعلام الفكر العربي».

- ورد اسمه وبيان بأعماله في «موسوعة أعلام القليوبية».

- ورد اسمه مع بيان بأعماله في «قاموس الأدب العربي الحديث».

- حاز كأس القباني لأفضل مجموعة قصصية عام 1979.

- حاز جائزة نجيب محفوظ للرواية في الوطن العربي. من المجلس الأعلى للثقافة عام 1994.

- حاز جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2004.

- حاز جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2010.

- حاز جائزة الطيب صالح في القصة القصيرة عام 2011.

للتواصل

التليفون: 37482400 - 01224255556

e-mail: fouadqandeel@hotmail.com

166 شارع النيل – العجوزة - الجيزة - مصر